مَعَ النَّحْوِ الْعَرَبِي وَالنُّحَاة

شمخي جابر فاضل

مَعَ النَّحْوِ الْعَرَبِيّ وَالنُّحَاةِ

شمخي جابر فاضل

© حقوق الكتاب محفوظة...

المقدمة

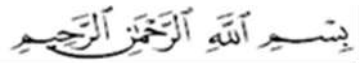

الحمدُ لله رب العالمين، والصلاة على محمد، وآله الطاهرين..

من المعروف أن الكلام بكافة لغاته، هو وسيلة للتواصل الاِجتماعي وليس غاية، وهو متحرك بتحرك المجتمع، ويخضع لاعتباراته وتغيراته المستمرة حاله حال البِنى والملابس والسيارات والطائرات والأسلحة... لكن لا يعني أنه يتطور نحو الأفضل!، فلربما تقهقر إلى الوراء بغية التسهيل المفرط، وهذا ابتذال؛ لأن المعاني لابد من وضعها في أواني لفظية جميلة، وجمل مركبة جيداً، كحال الطعام والشراب، والعطر وإيصالها بطريقة جذابة تسر الخواطر وترتاح لها الضمائر، فالجمال مطلوب في كل شيء.. ما أروع الجمال والكمال، ولو أنه غالباً بعيد المنال.

ونحن هنا نبحث القواعد النحوية القديمة التي وضعها النحويون القدماء، وهي تنسب لمدرستين: (البصرة ـ الكوفة). وهذا هو الأشهر، وتمتاز المدرسة البصرية أنها قولبت اللغة العربية بقوالب ثابتة حيث جعلتها كالمعادلات الرياضية، والقواعد المنطقية الأرسطية، فقد تعاملت مع اللغة على أنها أرقام لا تقبل التغيير حين الجمع، أو الطرح... وهذا ما جعل أهل هذه المدرسة العريقة يقلبون بعض الجُمل رأساً على عقب؛ لإخضاعها لقانونهم، وارجاعها إلى الأصل القالبي المتصوّر!. وقد رتبوا ـ مثلاً ـ الأدوات على حسب لفظها لا معناها ـ سيمر عليك ذلك لاحقاً ـ ولا لوم عليهم ما دام موضوعهم اللفظ، لكن نراهم يقلبون الجملة حتى يصح

معناها[1]!! إذن هم أقروا من حيث شعروا أم لم يشعروا أن المعنى هو الأصل والمقصود.. واللفظ إناء حامل له، إذن، فلا داعٍ للقولبة المعيبة المضطربة.

إن لغتنا العربية، هي لغة نغم وسجع وتقديم وتأخير وحذف واستعمال... فلو ترجمناها لحرفياً؛ لأصبحت الترجمة عبارة عن كلمات متقاطعة، خالية من المعاني!.. وهذا لا يعني أن اللغات الأخرى أفضل منها.

إذا أردنا أن نعرف لغتنا العربية، فنستطيع أن نقول عنها: إنها لغة سجع وشعر.. وكفى..

شمخي جابر فاضل ـ جمهورية العراق/ 2018 م .

[1] وربما تلاعبوا بالمعنى حتى يصح الدليل النحوي!! كما في حال (إنّ هذان لساحران) ومن المعروف أن "إنّ" تنصب المبتدأ وترفع الخبر، لكنها وردت على العكس من ذلك، فراحوا يفسرونها بتفسيرات هزيلة ومضحكة، حتى أنهم قالوا: (إنها بمعنى "نعم"!!) والحقيقة أن اللغة لا تخضع لقانون رياضي فهي متحركة ولا مانع من ذلك، أي: "إن" هي الناصبة وإن تم رفع ما بعدها، ولا داع للف والدوران، فالمعنى أهم من الدليل النحوي، بل الدليل النحوي فرع عن المعنى، والمعنى أصل، والأصل أهم من الفرع، بل الأصل يعم الفرع لا العكس.

يُعرف الكلام بثلاثة طرق

من المعروف أن وحدة بناء الكلمة هو (الحرف) وعدد هذه الوحدات في اللغة العربية الفصحى (29) وحدة صوتية قابلة للتدوين من خلال رمز يوضع بإزائها، ووحدة بناء الجملة هي (الكلمات). وهكذا نتدرج من الأصغر إلى الأكبر، لكن الكلمة مفردة تعطي معنىً مختلفاً أحياناً إن أصبحت ضمن جملة، فهي تخضع لـ"سباق وسياق ولحاق".. هذه الأمور تحدد معناها، وخصوصاً السياق، وإن لم تخضع للسياق، فهي كلمة ناشزة، ويصبح التركيب معِيباً، ومائلاً.

ونفهم من ذلك أن الكلمة لها معنيان: إفرادي وضعي، وسياقي تركيبي.

1 ـ **طبيعة الحال**، وهو الدليل الأقوى، وهو الدليل الذي لا يقبل التأويل.. مثاله: (خرقَ الثوبُ المسمارَ[2]) (خرقَ الثوبَ المسمارُ) سواء رفعنا المسمار، أو نصبناه يبقى المسمار هو الخارق للثوب، ولا قيمة لرفع الثوب؛ لأن من طبع المسمار خرق الثوب لا العكس. ونحو: (أكلَ الرجلُ الخبزَ)، (أكلَ الرجلَ الخبزُ). وبهذا يكون الدليل الإعرابي معطل لا قيمة له أبداً، لأنه لا يمكن خرق الثوب للمسمار، أو أكل الخبز للرجل.

2 ـ **النحوي**، وهو الدليل الذي يعتمد على الحركات في أواخر الكلمات من (رفع، ونصب، وجزم) في الأفعال، و(رفع، ونصب، وجر) في الأسماء.

مثاله: (ضرب محمدٌ علياً) (ضرب علياً محمدٌ)، فالضارب، هو (محمد) سواء تقدم أو تأخر، و(علي) هو المضروب تقدم أو تأخر، ففي هذه الحالات، الدليل النحوي هو الذي يؤخذ به، وإن خالف السياق، فالخلاف أحياناً له ما يبرره.

3 ـ **السياق**، السياق وهو الذي يعتمد على الترتيب، وهو الأصل في الكلام، لكن إذا تعارض السياق مع المعنى المسوق تعارضاً مخلاً، أو طبيعة الحال، أو خالف الواقع، أو مراد المتكلم، فلا قيمة له (أي: الترتيب)؛ لأن المعنى أهم من اللفظ.

---

[2] في الحاشية على شرح ابن عقيل لمحمد محيي الدين عبد الحميد (33/2). وقد ذكر ابن هشام في المغني (340/2) القول: (جحرُ ضبٍ خربٍ) ومن المفروض أن ترفع كلمة (خرب) لأنها صفة للجحر وليس للضب. وقد راح النحاة، كعادتهم يشرقون ويغربون.. والحقيقة أن المتكلم اعتمد على دليل طبيعة الحال، كما في (خرق الثوبُ المسمارَ)

الكلام المخالف للسياق، نحو: ﴿يا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا * وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا * واذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب/32 ـ 33].

فآية التطهير تخالف المعنى المسوق، فهي آية مستقلة؛ لأنها تتحدث عن أُناس مطهرين فعلاً، وعن بيت واحد وذكور، بينما السياق قبلها وبعدها يتكلم عن نواهي وأوامر وبيوت متعددة ونساء...

أما الكلام المخالف لطبيعة الحال، فقد مرّ عليك. والمخالف للواقع، نحو: (انتقد الشافعيُّ السيوطيَّ)؛ لأن الشافعي سبق السيوطي بمئات السنين، والعكس هو الصحيح، وهو أن ينتقد السيوطيُّ الشافعيَّ.

والمخالف لمراد المتكلم، كأن يتكلم شخص بكلام خلاف الظاهر المرتب لغرضٍ ما، يعرفه السامع الخبير بحال المتكلم، أو بحركة منه... نحو: عليٌّ (ع) ومعاويةُ (أميرُ المؤمنين!). وإن لم يعرفه المتكلم، فلا يجب اللجوء إليه؛ لأنه يؤخذ على المراد الظاهري الجدي!. لأن كلمة (أمير المؤمنين) هي أقرب لمعاوية من علي (ع) من حيثُ ترتيب الكلام المُساق..

وكذلك: (أمرني معاوية أن ألعن علياً!!!.. ألا فالعنوه). فالهاء تستطيع أن تعودها على علي (ع)، و (معاوية).. وهنا إن لم تكن هناك دلالة خارج اللفظ المجرد ـ كالإشارة، أو النبرة الصوتية، أو السياق، أو المذهب... إلخ ـ فالكلام له دلالتان: لعنُ عليٍّ (ع)، أو معاويةَ.. والمعنى الصحيح كامن في قلب المتكلم، لا السامع، بشرط أن لا يخالف القواعد الذوقيّة مخالفة تخرجه عن طريق الذوق العام.

وأحياناً في الكلام يكون السياق المرتب، هو الدليل الوحيد[3]، نحو: (ضربَ موسى عيسى) فهنا الأول هو الفاعل، إن كان عيسى، أو موسى؛ لأن دليل الإعراب معطل، وكذا دليل طبيعة الحال؛ لأن لا مانع من أن يضرب رجلٌ اسمُهُ "موسى"، رجلاً اسمه "عيسى"، أو العكس.

[3] هذا على فرض أن اللغة العربية دقيقة.

وكل هذه الطرق يسودها المعنى، فإن أختل المعنى اختلالاً فظيعاً، أو جَانَبَ الصوابَ، فلا قيمة لكل هذه الطرق، فنحكم على الكلام بالبطلان، والخطأ من المتكلم، أو الكاتب، وإلا لو استمرينا بالتبريرات، والترقيعات لكل المتكلمين والكتّاب، لما عثرنا على خطإٍ أبداً!!..

إن التركيب للكلمات لابدّ أن يؤدي المعنى بشكلٍ واضح وسليم؛ حتى لا يتوه السامع، أو القارئ في غياهب الظلمات، ويصبح الكلام أو الكتابة بلا قيمة[4]، لكن للأسف لا توجد لغة تؤدي المعنى بشكل دقيق مئة بالمئة، والسبب؛ لأنها اِجتماعية وليست رياضية، فيتم التلاعب في تراكيبها من تقديم وتأخير، وحشو اللفظة الواحدة بعدة معانٍ، ووضع عشرات الألفاظ لمعنى واحد، لكن بشرط أن لا يضيع المعنى، أو يختل اختلالاً فظيعاً، ولا يكون اللفظ هو المحتوى بدل الحامل له، كما فعل بعض النحاة؛ لتصحيح قاعدتهم النحوية، فاهتموا باللفظ وأضاعوا المعنى الأصلي، و صنعوا معنىً يراعي القاعدة النحوية اللفظية!!.

الكلام اللفظي يفقد الكثير من دلالاته، حينما يتحول إلى كتابة، فهو يفقد النبرة الصوتية، والنغمة واللحن، وارتفاع الصوت وانخفاضه، والحركات اليدوية والعينيّة والجسدية وتغييرات الوجه من فرح وغضب وخجل ووجل... إلخ.

فهناك دلائل تختفي، فاللغة العربية في أصلها صُممتْ على أنها لغة خطاب صوتي مباشر، ولم تُصمم للكتابة[5]؛ لذلك تجد حذف كلمات أساسية مثل: المبتدأ و الخبر و جواب الشرط، وحذف أدوات الاِستفهام... فحينما نقول: (كتاب) حذفنا الخبر اعتماداً على الاِشارة الحركية في الخطاب اللفظي المباشر. وحينما تقول: (قابلته) فأنتَ اعتمدت على علم المُخاطَب المسبق، فأبدلت الاسم بالضمير. والأصل (قابلتُ محمداً) على فرض أن الذي قابلته، هو رجل اسمه محمد.

وفي الكتابة نذهب لتقدير مبتدأ محذوف لخبر، أو خبر لمبتدأ محذوف.. ولا نعلم هل هذا خبر أو استفهام.. فمثلاً (محمد جالس) يمكن أن تكون جملة استفهامية محذوفة أداة الاستفهام منها[6]، أو خبرية.. وفي عصرنا الحاضر نميز الاستفهامية بوضع علامة استفهام: (محمد جالس؟).. كما أن هناك التباساً في الخبر والإنشاء، فمثلاً ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة/256]..

---

[4] الكتابة تصوير للفظ، ومع ذلك ذكرناها؛ لاعتبارها.

[5] ذكرنا العربية؛ لأن موضوعنا يخصها، وإلا كل اللغات كذلك.

[6] على فرض أن الجملة مكتوبة في العصر الحديث، الذي اخترعت فيه علامات الترقيم والتنقيط.

هل هي خبرية، فيكون معناها: (الدين الإسلامي لا يوجد في تشريعاته إكراه لأحد على الإيمان به، أو أن إكراه الدين وإن وجد لا يُسمى إكراهاً).

أو هل هي إنشائية، فيكون معناها: (لا تكرهوا الناس بالقوة على تطبيق الدين الإسلامي)؟؟.

والراجح أنها إنشائية، بدليل الآية:

﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف/29].

نعم، اللغة العربية تفي بالغرض مكتوبة بنسبة تقارب الكمال، لكن بشرط أن نرجع إليها كل ما حُذف منها مشافهة، ولا نجعل المقدم تالياً، أو التالي مقدماً، كما أننا سوف نستغني عن (90%) من علامات الإعراب تقريباً[7].

إن سبب التأخير والتقديم، هو الشعر والسجع عادةً، وسبب الحذف، هي الخفة والاختصار عادةً؛ بسبب تعويض المحذوف بحركات حسية، ونبرات صوتية.

في كثير من الأمور، الكلام لا يؤدي الغرض، بل يقرب المعنى بشكل ضئيل جداً، أو معدوم..

فمثلاً حينما يكون الإنسان مريضاً، ويرى الكوابيس الغريبة، فهو عاجز عن وصفها والتعبير عنها، ولا يستطيع، إلا أن يرسم صورة تقريبية لا تفي بالغرض، بل توصل فكرة عامة ضئيلة جداً للمستمع، أو القارئ.

تمعن في قول الله تعالى:

﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ * طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ * فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ * ﴾ [الصافات/ 64 ـ 66]

فأنتَ تعرف الشجر بشكل عام، وتعرف الجحيم بقياسها على النار، وتعرف الطلع، لكنك لا تعرف رؤوس الشياطين؛ لأنك لم ترها. وهذه مجرد صورة بشعة أراد اللهُ أن يوصلها لك، دون العلم التفصيلي أو حتى الإجمالي المريح. بل تركك تهيم في عالم الخيالات والتصورات، وترسم صوراً غاية في البشاعة والقباحة والرعب لتلك الرؤوس التي ستكون غذاءً يدخل معدتك!!.

---

[7] مع العلم الكتّاب لا يضعون علامات الإعراب الحركية فوق أواخر الحروف من الكلمات.

لو شبّه القرآن تلك الرؤوس برؤوس الأفاعي ـ مثلاً ـ لكانت أقل وطأً على النفوس وأقل تأثيراً؛ لأنها مادية معلومة، وقد اعتادت عليها العيون، ورُسمت علاماتها في خرائط الأذهان، وطُبعتْ صورها على صفحاتها..

نماذج نحوية من اختراع النحاة!!

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة/6].

كل من يقرأ الآية يعرف أن ما بعد الفعل (اغسلوا) حكمه الغسل؛ لأنه وقع بعده مباشرة دون فاصل، فالكلام مرتب ولا داع للتلاعب في ترتيبه؛ لأنه لا يخالف الطرق الثلاثة: (طبيعة الحال، والسياق، والإعراب)، ولا واحد منها، بالإضافة إلى صحة معناه، فالوجوه والأيدي حكمها (الغسل)، والرؤوس والأرجل حكمها (المسح)؛ لأنها وقعت بعد الفعل (امسحوا)، فالعناصر مرتبة، عناصر أغسلوا "اثنان"، وعناصر امسحوا "اثنان"، لكنّ النحاة المذهبيين تلاعبوا بالمعنى حفاظاً على المذهبية وبرروا ذلك: أن الأرجل منصوبة، والرؤوس مجرورة، مع أن الرواية مختلف فيها في القراءات السبع!!، فهناك روايات تجر الأرجل، ومع أن دليلهم ميّت، وكثير من النحاة لا يقبل به، أو يضعفه، إلا أنهم أصروا على دليلهم الميت!. حتى أن ابن هشام قال: والذي عليه المحققون أن خفض الجوار يكون في النعت قليلاً، كما مثلنا، وفي التوكيد نادراً.

وبما أن بعض القراءات تخفض الأرجل، فإذا لم نقل بمسح الأرجل، يكون هناك تناقض بين القراءتين؛ لأن قراءة الخفض تأمر بالمسح، وقراءة النصب تأمر بالغسل.. (طبعاً، هذا إن أقرينا أن الأرجل منصوبة؛ بسبب فعل "اغسلوا").

كما أن مسح الأرجل يعتمد على دليلين: السياق والإعراب، بخلاف الغسل الذي يعتمد على دليل إعرابي ضعيف. بل فاسد وسخيف!!.

ويقول الزمخشري: "لما كانت الأرجل من بين الأعضاء الثلاثة المغسولة تغسل بصب الماء عليها كانت مظنة الإِسراف المذموم شرعاً، فعطف على الممسوح لا لتمسح، ولكن لينبه على وجوب الإِقتصاد في صب الماء عليها..."!!![8] .

هل عرفتم كيف يتلاعب هؤلاء الفقهاء "النحاة" في اللغة لنصرة رأيهم الميت، مع أن عشرات الأحاديث وردت بالمسح[9] ؟!.

الله يأمر بالمسح، لكنه يريد الغسل!!!.. النبي (ص) يدعو على معاوية" "لا أشبع الله بطنه"؛ ليجعله أكولاً! مع أن المؤمن يأكل في معي واحد، كما روت صحاحهم، والكافر بسبعة!!.. النبي (ص) يسب أصحابه؛ ليغفر الله ذنوبهم!!!.. إنه منطق اللا منطق، والإسفاف، والإستخفاف، والعبثية، والمطاطية، والهلامية، وتغييب العقول!!!.

ويأتي الرازي في تفسيره للآية؛ ليقول: إن قراءة النصب وقراءة الخفض توجبان المسح؛ لأن الأرجل إما تكون منصوبة على المحل، أو مجرورة بالجوار، ثم يقول: جاء القرآن بالمسح، وجاءت السنة بالغسل[!!].

القرآن والسنة نقيضان لا يجتمعان في منطق الرازي!! ولابد من طرح أحدهما؛ ليصح الآخر، ويبدو أن الرازي طرح القرآن وأخذ السنة التي روت المسح والغسل بشكل متناقض ومضطرب!!.

ولا ندري نذهب مع الزمخشري الذي يقول بأن الله يأمر بالمسح، لكنه يريد الغسل، أم مع الرازي الذي يجعل القرآن منسوخاً بالسنة؟!!.. والمصيبة أن هؤلاء الفقهاء يخالفون سيدهم عُمر بن الخطاب الذي كان يحرق الأحاديث، ويمنع من كتابتها، ويقول: ((حسبنا كتاب الله))!!.. وإذا كانت الأحاديث تَنسخ القرآن، فهذا يعني أنها أقوى وأصح منه، وأن القرآن دونها رتبةً؟!!.

والحقيقة أن المسح هو الصحيح، وليس الأصح؛ لعدة أدلة دامغة:

---

[8] مغني اللبيب في كتب الأعاريب (340/2)

[9] أورد هذه الأحاديث صالح الورداني في كتابه (تصحيح العبادات).. فراجعها.

. دليل السياق والاستقامة، وعدم الفاصل الأجنبي بين المغسول والممسوح، فكل فعل يأخذ عناصره بعده (الوجوه والأيدي) بعد (اغسلوا).. و(الرؤوس، والأرجل) بعد (امسحوا)، ويكون الترتيب ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ = (فعل، فاعل، مفعولان).

{وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ = (فعل، فاعل، مفعولان)، فيكون الكلام مرتب ولا تتداخل العناصرُ ببعضها، ولا يختل التركيب بلا مبرر يصحح المعنى المختل والمخالف لطبيعة الحال، أو السياق، أو الدليل النحوي.. والعكس ما قالوه؛ لأنه يخطّئ الصحيح!. فما استدلوا به: من جانب السياق، فهو خلافه بشكل مخل ومعيب؛ لأنه يجعل الترتيب يقفز على عناصر غيره متخطياً الفواصل والترتيب، وأما من الجانب النحوي، فهو هزيل؛ لأن نصب (الأرجل) لا يعني أن الأرجل منصوبة بفعل (اغسلوا)، بل منصوبة على محل (الرؤوس) المجرورة لفظاً المنصوبة محلاً، وهي في الأصل منصوبة؛ لأنَ الجرَّ عرضيٌّ بالباء. والأصل هو النصب، فالأرجل باقية على الأصل. وهذا معروف عند النحويين، وهو النصب على المحل... يقول ابن هشام في (مغني اللبيب في كتب الأعاريب) حين أعرب:

إنّ هندُ المليحةُ الحسناءَ وأيَ مَن أضمرت لخلٍ وفاءَ

... (هندُ منادى)، (والمليحةُ نعت لها على اللفظ)، (والحسناءَ، إمّا نعت على الموضع، وإمّا بتقدير أمدح...)

وبهذا يكون النصب لا ينفي المسح، بل يقره، ومن جانب آخر هناك قراءات قرأت الأرجل بالجر، فيتحد السياق والنحو، بخلاف تبعية الأرجل للغسل التي تخل بالسياق والنحو اخلالاً مروعاً، وتجعل ترتيب العناصر مبعثراً متداخلاً بلا أدنى مبرر!، بالإضافة إلى جعْل القرآن يأمر بالغسل والمسح معاً، وهما متغايران!!.

ثم نرى نفس قانون آية الوضوء، يتكرر مع آية التيمم ﴿. . . فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ. . . ﴾ . . نفس الفعل، ونفس المفعول، الذي التصقت به الباء، فهل نقول عن هذا المسح بأنه غسل، رغم أنه المستعمل هو التراب وليس الماء؟!!.

لقد تعسف الفقهاء (النحاة) تجاه هذه الآية، فحاولوا جهد إيمانهم أن يجعلوها تتلاءم مع الأحاديث، التي اخترعها "إعلاميو السلاطين" بأمر من أسيادهم؛ كي يبتدعوا أحكاماً موازية لأحكام الإسلام الأصلية!.

إنّ السياسة لعبت دوراً هدّاماً تجاه الإسلام، فقد تم إلغاء ما قرره الرسول محمد (ص) واستبداله بتصرفات السلاطين؛ لأن أحكام ومقررات الإسلام الأصلية، التي أصلها الرسول (ص) لا تتلاءم مع طموحات السلاطين الغير مسؤولة.

حتى أن بعضهم نزا على القرآن؛ ليحرّف بعض آياته، كما فعل سفاح بني ثقيف "الحجاج بن يوسف" والي عبد الملك بن مروان.

والطامة الكبرى أن أغلب "الفقهاء" و "النحاة" هم موظفون عند السلطة، وهي من تتحكم بهم وتديرهم، ولا يمكن لهم مخالفتها أبداً؛ لأن المخالفة غير مسموح بها، فما يريده السلطان، لابد أن يتم تنفيذه.. وهكذا أصبح علم الفقه والنحو والحديث والتفسير والتاريخ... منتجاً من منتجات السلطة؛ لذلك نحنُ لا نستطيع أن نثق بجل هذه المنتجات الغير مطابقة للمعايير الإسلامية الغراء، وهدي النبوة الوضّاء.

ورطة النحاة..

بعض الكلام الوارد عن العرب حطم أقفاص النحاة، وجعلهم في حيص بيص، يلتمسون المخارج بمعاول خشبية!!.

(إِنّ هَاذَانِ لَسَاحِرَانِ). هكذا قرئت في بعض القراءات برفع الاِسْم بعد" إنّ" التوكيدية المشبهة، الناصبة للمبتدأ الرافعة للخبر.. كما هو معروف عند النحاة، وبما أنهم لا يستطيعون تخطِئة هذه القراءة، راحوا يلتمسون لها التبريرات والتحويرات، فكانت تبريراتهم تخطِّئ أكثر ممّا تصحح!!. ومن هذه التبريرات البائسة قولهم "إنها . أي: إن . بمعنى نعم!". وهذا كلام لا قيمة له؛ لأن "إن" لا تكون بمعنى "نعم" أبداً باعْتراف كبار النحاة، ومن جعلها بمعنى "إن" أراد أن يخرجها بأي طريقة حتى لو كانت هزيلة!.

والحقيقة أن رفع اسم "إن" كان يستخدم عند بعض قبائل العرب، وقد أقره بعض النحاة.. والعرب ليس لهم لغة موحدة، بل لهجات متعددة.. أما الذين استخدموا العربية لسببٍ ما، فهم لا يهتمون بهذه الأمور، بل لا يعرفونها!..

كما أن العرب ليسوا صارمينَ مئة بالمئة في اللغة، كما يصور لنا ذلك النحاةُ.. والعرب كما قلنا يستخدمون لهجات كثيرة، فاللغة هي وسيلة تواصلية اِجتماعية عندهم، فإذا أدت الغرض، فلا ضير في التغييرات من نصب بدل الرفع، أو رفع بدل النصب، وجر المرفوع... إلخ؛ لأن الأصل هو المعنى، وما الألفاظ، إلا أواني لحملها.. حتى أن أستاذ علم النحو كان لا يتقيد في اللفظ الإعرابي معتمداً بذلك على المعنى.. وهو الخليل بن أحمد الفراهيدي.

﴿ . . . أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ . . . ﴾ [التوبة/ 3].

ذكر السيوطي في تفسيره (الدر المنثور) تحت تفسير الآية آنفة الذكر. حكاية تدل على التمسك باللفظ خلاف الواقع: ... وأخرج أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري في كتاب الوقف والإبتداء وابن عساكر في تاريخه عن ابن أبي مليكة (رض) قال: قدم أعرابي في زمان عمر (رض) فقال: من يُقرئني ما أنزل الله على محمد (ص)؟، فاقرأه رجل، فقال: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ بالجر [أي: جر اللام من كلمة "رسوله" فيكون عطفاً على المشركين!!!]، فقال الأعرابي: أقد برئ اللهُ من رسولِه؟ إن يكن الله برئ من رسوله، فأنا أبرأ منه [!!]. فبلغ عُمر مقالة الأعرابي، فدعاه فقال: يا أعرابي أتبرأ من رسول الله (ص)؟. قال: يا أمير المؤمنين إني قدمت المدينة ولا علم لي بالقرآن، فسألت من يقرئني؟ فأقرأني هذه سورة براءة. فقال: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ فقلت: إن يكن الله بريء من رسوله، فأنا أبرأ منه. فقال عُمَر (رض): ليس هكذا يا أعرابي. قال: فكيف هي يا أمير المؤمنين؟. فقال ﴿أن الله بريء من المشركين ورسولُهُ﴾ فقال الأعرابي: وأنا والله أبرأ مما ما برئ الله ورسوله منه. فأمر عمر بن الخطاب (رض) أن لا يقرئ الناس، إلا عالم باللغة، وأمر أبا الأسود (رض)، فوضع النحو.

وأخرج ابن الأنباري عن عباد المهلبي قال: سمع أبو الأسود الدؤلي رجلاً يقرأ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ بالجر، فقال: لا أظنني يسعني، إلا أن أضع شيئاً يصلح به لحن هذا، أو كلاماً هذا معناه. ا هـ .

لقد اعتمد هذا الأعرابي على الدليل الإعرابي الحركي ـ وفي الحقيقة الدليل الإعرابي الحركي دليل معقد جداً ـ مهملاً الواقع.

إن اتّباع الدليل النحوي وإن خالف الواقع، لهو مشكلة كبيرة!!. فالواقع يصحح الكلام، أكثر من الدليل النحوي. إن المعنى يحكم على اللفظ؛ ولذلك الكلمة المشتركة الاستعمال يظهرُ معناها السياقُ. فلو قال شخصٌ ما جلستُ مع الأسد وتبادلتُ معه أطراف الحديث، لحكمنا مباشرة على أنه يقصد بكلمة (أسد) رجل شجاع، مع أن الكلمة ـ أصلاً ـ موضوعة لنوع من الحيوانات المفترسة.

إن الكلمة مفردة ربما يكون لها معنى غير معناها في السياق، فالمعنى الأول نستطيع أن نسميه المعنى الأصلي أو الوضعي أو الحقيقي.

أما الثاني، فنستطيع أن نسميه المجازي ـ إن كان ليس وضعياً ـ أو السياقي أو الاستعمالي.. فمثلاً قول الله تعالى: ﴿لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح/9]. فكلمة "تعزروه" تخالف السياق من حيث معناها الأصلي الوضعي؛ لأن التعزير نوع من أنواع العقوبة والتعذيب، وهو عكس التوقير، فلابد أن يكون معناها "تحترمونه" بدل "تعذبونه"!، التي لا تتناسب مع السياق وكلمة التوقير، إذ يحصل تضارب بين السياق ومعنى الكلمة منفردة. فالمفردة لها معنيان: و"ضعي إفرادي"، و"استعمالي سياقي". ويجب علينا أخذ الأصلح أو الصالح.

وهناك كلام مَثَلِي، وهو أيضاً يندرج تحت الكلام الاستعمالي المجازي، نحو: "اشرب البحر"، فالمعنى الوضعي للكلام يعني أن عليك شرب ماء البحر!!، لكن المعنى المثلي، يعني أن المتكلم لا يبالي بك، فكأنه يقول لك: اعمل ما شئت، فلن أخشاك. وهو كلام يدل على الاستخفاف والتحدي!. فالجملة لها معنيان: 1 ـ لغوي وضعي أصلي (معطَل). 2 ـ استعمالي مجازي صوري (مفعّل).

وهذا يبين أن الكلام ليس ألفاظاً مجردة، بل له مدلولات نفسية وقصدية، كما أن النبرات الصوتية من حيثُ الغلظة والرقة والارتفاع والانخفاض، واللحن بالإضافة إلى الحركات الجسدية، وتعبيرات الوجه والعيون وتغير اللون بالإضافة إلى الضحك أو البكاء... ـ تغيّر نفس الكلمة أو الجملة إلى معنى آخر.

وذكر الرازي في تفسيره وجوه لإعراب هذه الآية: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فيه حذف والتقدير: ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بأن الله بريء من المشركين، إلا أنه حذف الباء لدلالة الكلام عليه. واعلم أن في رفع قوله: ﴿وَرَسُولُهُ﴾ وجوهاً: الأول: أنه رفع بالإبتداء، وخبره مضمر، والتقدير ورسوله أيضاً بريء، والخبر عن الله دل على الخبر عن الرسول.

والثاني: أنه عطف على المنوي في بريء، فإن التقدير: بريء هو ورسوله من المشركين.

الثالث: أن قوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ﴾ رفع بالابتداء وقوله: ﴿بَرِيءٌ﴾ خبره وقوله: ﴿وَرَسُولُهُ﴾ عطف على المبتدأ الأول. قال صاحب «الكشاف»: وقد قرئ بالنصب عطفاً على اسم أن؛ لأن

الواو بمعنى مع، أي: بريء مع رسوله منهم، وقرئ بالجر على الجوار، وقيل على القسم والتقدير أن الله بريء من المشركين وحق رسوله ... ا هـ .

إن العرب اعتمدوا على الدليل الإعرابي الحركي؛ لأن لغتهم لغة أدب منطوق، غير علمية، فهي لغة وزن وشعر وسجع، وخطاب ومشاعر... وهذا يتطلب بعثرة عناصر الجملة، وتشتيت ترتيبها، وثم وضع علامات عليها دالة بمثابة الأرقام التسلسلية، لكنها للأسف لا تؤدي المعنى بوضوح، كالأرقام، فهي محدودة وتتداخل، فالرفع للفاعل، والنائب عنه، واسم كان، وخبر "إن"... والنصب للمفعول، واسم "إن"، والحال والمنصوب على الظرفية، والمفعول فيه، ومفاعيل ظن وأعطى... كما أنها تتطلب المعرفة الكاملة بها. ولم تقتصر اللغة العربية على بعثرة العناصر، بل حذف بعضها؛ لأن اللغة العربية، كما قلنا غير علمية[10]، فهي لغة خطاب مباشر، وحينما يحذف المتكلمُ كلاماً يعوضه بإشارة حركية، أو نبرة صوتية، أو يعتمد بخطابه على السامع اللبيب، وإن لم يفهم السامعُ المتكلمَ يطلب منه توضيحاً مباشراً. وبهذا يفهم مراد المتكلم بالدقة...

كما أنها لغة شعر ووزن وقافية.. وهذا يتطلب حذف بعض الكلمات، أو حشوها؛ لأجل الحفاظ على النغم الموسيقي، والوزن العروضي، أو لأجل نكتة بلاغية، أو سجع... إلخ.

وللأسف حينما نحوّل هذا الكلام الصوتي إلى كتابة يصبح عييّاً لا يصل إلى الهدف المنشود؛ لأنه يفقد القرائن المذكورة أعلاه، وحينما لا نعرف مراد المتكلم يأتي النحاة باحتمالاتهم ونظرياتهم نيابة عنه؛ لتقريب مراده على الأقل؛ لذلك تجد النحاة تاهوا في محيطات سحيقة وأبعدونا عن الحقيقة!.. ولا لوم على أغلب ما يقولون، فالجود من الموجود!، لكن اللوم على الذين يضعون القواعد الهزيلة، إما للمذهبية، وإما لجني المال من السلاطين الذين يعطون للكاتب بوزن كتابه ذهباً، وهذا جعلهم يصنعون الفذلكات والحشو من أجل المال الوفير ـ وسبحان من لا يحب المال الوفير!! ـ وأصبح النحو مهنة يتبارى بها ومن أجلها النحاةُ، وكل منهم يبرز عضلاته على خصمه، وهو مستعد أن يصنع المخارج التي يريدها، ولو ثقب المعنى بمعاول مخارجه، وحطّمَ زجاجَهُ بمطرقته الحديدية!، فالنحاة لا يختلفون عن فقهاء

---

[10] لا يعني هذا أن اللغة العربية لا نكتب بها الأمور العلمية، كلا، وإنما نقصد أن الذين وضعوا اللغة العربية، وضعوها تنسجم مع نظامهم الاجتماعي وتلبي رغباتهم. واللغة وسيلة، فما دامت تؤدي الغرض الذي يريدونه وهو الشعر والسجع... كما أن اللغة العربية لغة أدبية، ولغة الأدب تعتمد على الخيال والتصوير والقصر، ولا تراعي عناصر الخطاب إن عارضت الوزن والسجع... وتستخدم المجاز لروائع الكلام.. وهذا يضفي روعة جمالية وإن خالف العلمية، وهي لغة شفاهية مباشرة. واللغة العلمية لغة جافة؛ لأنها حدية ـ إن وجدت ـ لا مرونة فيها بالنسبة للأدب الذي هو بضاعة العرب الثمينة!.

السلاطين الذين ألَّهُوهم مقابل المال الوفير، وجعلوا الناس عبيداً لهم، حللوا لهم أرواحهم وأعراضهم وأموالهم!!.

كما أنّ للكتاب دوراً في الخطأ، فالكاتب يسهو، فيخطئ في كتابته سواء بإبدال حرف مكان حرف، أو بإبدال كلمة مكان كلمة، أو جملة مكان جملة.

ذكر السيوطي في تفسيره (الدر المنثور): ... وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي داود في المصاحف وابن المنذر عن الزبير بن خالد قال: قلت لأبان بن عثمان بن عفان: ما شأنها كتبت ﴿لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة﴾ ما بين يديها وما خلفها رفع وهي نصب؟. قال: إن الكاتب لما كتب ﴿لكن الراسخون﴾ حتى إذا بلغ قال: ما أكتب؟ قيل له: اكتب ﴿والمقيمين الصلاة﴾ فكتب ما قيل له.

وأخرج أبو عبيد في فضائله وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي داود وابن المنذر عن عروة قال: سألت عائشة عن لحن القرآن ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون﴾ [المائدة / 69] ﴿والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة﴾ ﴿إن هذان لساحران﴾ [طه/ 63]؟. فقالت: يا ابن أختي هذا عمل الكتاب أخطأوا في الكتاب.

وأخرج ابن أبي داود عن سعيد بن جبير قال: في القرآن أربعة أحرف. الصابئون، والمقيمين، ﴿فأصَّدَّق وأكن من الصالحين﴾ [المنافقون / 10] ﴿إنّ هذان لساحران﴾ [طه / 63].

وأخرج ابن أبي داود عن عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر القرشي، قال: لما فرغ من المصحف أتى به عثمان فنظر فيه فقال: قد أحسنتم وأجملتم، أرى شيئاً من لحن ستقيمه العرب بألسنتها، قال ابن أبي داود: هذا عندي يعني بلغتها فينا، وإلا فلو كان فيه لحن لا يجوز في كلام العرب جميعاً لما استجاز أن يبعث إلى قوم يقرؤونه.

وأخرج ابن أبي داود عن عكرمة قال: لما أتى عثمان بالمصحف رأى فيه شيئاً من لحن، فقال: لو كان المملي من هذيل والكاتب من ثقيف لم يوجد فيه هذا.

وأخرج ابن أبي داود عن قتادة: أن عثمان لما رفع إليه المصحف قال: إن فيه لحناً وستقيمه العرب بألسنتها.

وأخرج ابن أبي داود عن يحيى بن يعمر، قال: قال عثمان: إن في القرآن لحناً، وستقيمه العرب بألسنتها... ا هـ .

عائشة تعترف اعترافاً صريحاً أن كُتّاب المصحف أخطأوا في كتابتهم له، وكلامها ليس كلاماً خيالياً، بل واقعياً؛ لأن الكُتّاب بشرٌ، وإن كان القرآن سماوياً، فحينما يصبح السماوي تحت يد البشر يُطعّمهُ ببشريته!. وما هذه الآراء النحوية، واللغوية، والتفسيرية، لفهم النص، إلا من نتاج البشر!!. أمّا ما يوجد داخل النص، فعلمه الدقيق عندَ ربي!!..

ولم يقتصر الأمر على عائشة، وعثمان اللذَيْنِ أقرَّا باللحن، وأن العرب تقيمه!، بل تعدى لكثير من الصحابة الذين كانت لهم مصاحف خاصة، وقراءات مختلفة. وفي الحقيقة أن هذه القراءات نتاج بشري، بنى العلماءُ له ألف بنيان، واخترعوا له ألفَ عنوان، تحت (قراءة، حرف...).

وكلها التماسات، كالتماسات النحاة واللغويين والمفسرين؛ لأنهم قالوا بنصية القرآن، فما تنفعهم هذه الإلتماسات القطبية المتجمدة.

كل الأدوات التي حشدها العلماءُ في كافة أصنافهم، هي لإبراز المعنى بطريقة واضحة، وصقل مرآته؛ كي تعكس صورة المعنى بشكلٍ صاف، لكن كل هذه الأدوات والآليات النحوية واللغوية والتفسيرية، لم تبرز المعنى بالطريقة المطلوبة ولم تعكس صورته بشكل صاف، بل أحياناً وجودها، كعدمها، بل ربما تحولت إلى الاتجاه المعاكس، فهذه الأدوات في كثير من الأحيان ذات حدين كالسكين، تقطع لك اللّحم، لكنها لا ضير أن تقطع لحمك أنتَ، إن وقعت بيد الخصم اللدود!!.

اقرأوا كتب التفسير، وستجدون علم النحو واللغة والتفسير عبارة عن وسائل دفاع عن حكايات بعض الأسلاف البائسة!. وقد مرت عليك آية الوضوء، وكيف صال المفسرون صولات رموا من خلالها معاني القرآن في غيابة الجب، ومزقت ذئابهم لحومها بأنيابها الحادة ومخالبها المدببة!.

ولم يكتفوا بذلك، بل أماتوا وقبروا آيات بأكملها؛ لأنها لا تتناسب مع الحكام، بحجة النسخ، وقسموا النسخ تقسيمات لا تليق بمقام القرآن الكريم!.

نعود للروايات:

ذكر أبو حيان في كتابه (تفسير البحر المحيط) تحت تفسير الآية ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون﴾ ما نصه:... وقرأ عثمان، وأبي وعائشة، وابن جبير، والجحدري: (والصابئين). قال الزمخشري: وبها قرأ ابن كثير. وقرأ الحسن، والزهري: (والصابئون) بكسر الباء وضم الياء، وهو من تخفيف الهمز كقراءة: يستهزئون. وقرأ القراء السبعة: (والصابئون) بالرفع، وعليه مصاحف الأمصار، والجمهور. وفي توجيه هذه القراءة وجوه: أحدها: مذهب سيبويه والخليل ونحاة البصرة: أنه مرفوع بالابتداء، وهو منوي به التأخير، ونظيره: إنّ زيداً وعمرو قائم، التقدير: إن زيداً قائم وعمرو قائم، فحذف خبر عمرو لدلالة خبر إنّ عليه، والنية بقوله: وعمرو، التأخير. ويكون عمرو قائم بخبره هذا المقدر معطوفاً على الجملة من أنّ زيداً قائم، وكلاهما لا موضع له من الإعراب... ا هـ .

كما ترى قراءة تقول (الصابئين) وهي المنسجمة مع السياق، ولا تحتاج لتقديرات، بينما (الصابئون) تحتاج لتقديرات، وتأويلات ولا تنسجم مع السياق.

وعلى شاكلتها الآية: ﴿لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ ، فقد رويت (المقيمين) بالنصب والرفع، فراح النحاة يلتمسون مخارجَ للنصب، فتارة نصبت على المدح، أو الإختصاص، أو معطوف على ﴿بما أنزل إليك﴾... وقد سبقها ولحقها الرفع: (الراسخون.. المؤتون.. المؤمنون).

هنا اعتمدوا على السياق، فسواء نُصبتْ كلمة (المقيمين) أو رُفعتْ، فالمعنى باقٍ على حاله، دون تغيير.

والحقيقة أن العرب لا يراعون الحركات والحروف الإعرابية مئة بالمئة، فجائز عندهم نصب المرفوع، والعكس، وبما أنهم من كتب القرآن سحبوه على لهجاتهم.. وكل ما يقوله النحاة هو عمليات جراحية تجميلية لحساب اللفظ على المعنى أحياناً، وإلا كلمة (المقيمين) نزلت بلفظ واحد، إما بالرفع، أو النصب. وعلينا أخذ الذي ينسجم مع السياق، والإعراب الغير معقد، والذي لا يحتوي على تقديرات مملة ومتباينة، فكثرة الإحتمالات تبعدنا عن الهدف المنشود.

والقصة لم تنتهِ، فقد ذكر السيوطي في تفسيره (الدر المنثور) ما نصه: ... في المختارة من طرق ابن عباس (رض) في قوله ﴿لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها﴾ قال: أخطأ الكاتب، إنما هي حتى "تستأذنوا".

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير والبيهقي في شعب الإيمان عن إبراهيم قال: في مصحف عبد الله ﴿حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا﴾ .

وأخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة قال: هي في قراءة أبي ﴿حتى تسلموا وتستأذنوا﴾.

وأخرج ابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف عن ابن عباس (رض) في قوله ﴿حتى تستأنسوا﴾ قال: حتى تستأذنوا.

وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس (رض) قال: الإستئناس: "الإستئذان"...[!!] ا هـ .

ابن عباس بقول أن الكاتب أخطأ، فكتبها (تستأنسوا) بدل (تستأذنوا)!!..

وهذه الأخيرة تنسجم مع الكلام تماماً، فلا دخول، إلا بعد الإذن من المُلّاك. أما تستأنسوا، فهي غريبة جداً. كيف نستأنس قبل أن ندخل؟؛ لذلك قال ابن عباس أخطأ الكاتب!. وأنتَ حينما تدقق تلاحظ الشبه الكبير بين الكلمتين، فهما تتطابقان في الحروف الأربعة، وتتشابهان في الحرفين اللذين بعدها، لا سيما أن الكتابة كانت بدائية وغير منقطة، فتدمج الذال الغير منقطة مع النون الغير منقطة، فيحصل تسنين (سين) فتكون (تستأنسوا) بدل (تستأذنوا). والدليل أنّ البعض قرأها (تستأذنوا).

وأكبر دليل على بدائية كتابة كُتّاب المصحف الكريم عدم مراعاتهم لقواعد منضبطة، وحذفهم حروف المد (ا، و، ي) بشكل مفرط، وأحياناً اللام، وربما النون، وعدم التنقيط والتشكيل، والترقيم، وكتابة الحرف تارة، وتارة حذفه، وعدم كتابة الهمزة، وكتابة حرف الألف في نفس الكلمة منحنياً وقائماً، والتاء طويلة وقصيرة... وبعد كل هذا الأسلوب المريع السائب يأتي المرقعون؛ ليجعلوا منه إعجازاً!!. ونحن نطلب منهم ارجاع المصحف لرسمه الأول؛ لنطلب منهم قراءته، حتى نرى ونسمع الإعجاز!!.

المحتوى والإناء

رأي العلماء أن القرآن مكون من (محتوى وإناء) = (معنى ولفظ) وأي تغيير لهذين العنصرين يعتبر تحريفاً، فإن أبدلنا المحتوى وأبقينا الإناء، فهو التحريف (المحتوائي ـ المعنوي)، وإن أبدلنا اللفظ، وأبقينا المعنى، فهو التحريف (الإنائي ـ اللفظي)، وإن أبدلنا المحتوى والإناء، فقد خرجنا عن القرآن تماماً.

لكنهم يجعلون التحريف الحقيقي، هو اللفظي؛ لأنه خروج عن النص المكتوب في القرآن.. أما المعنوي، فهو تحريف مجازي.

بهذا الأسلوب، فقد أقر العلماء أنهم لا يعرفون الكثير من معاني القرآن؛ لأن الألفاظ الحاملة للمعاني غير واضحة الدلالة.

والتفاسير وكتب الفقه خير شاهد، وقد اختلفوا في اللفظ.. والقراءات خير شاهد، وربما اللفظ حرّف المعنى؛ لأن الكلمة لا يتم تبديلها بمرادفتها، فربما بمباينتها، فيكون أحياناً التحريف اللفظي تحريفاً مزدوجاً (لفظياً ـ معنوياً). أما التحريف المعنوي، فهو ملْء الإناء بغير محتواه، كما تُملأ قارورة العطر بالماء، فيكون الإناء بلا قيمة بعد أن فقد محتواه؛ لأن القيمة للمحتوى، والإناء مجرد حامل وحافظ له، لكن لا يعني أن يكون الإناء غير جميل، بل العكس، لابد من تجميله للترغيب والراحة النفسية، وحب الإنسان للجمال، وكما لا يجب أن نغير الإناء، حتى وإن احتفظنا بمحتواه؛ حتى لا نفقد ميزة الإناء، وتبعاً نفقد المحتوى أو يلتبس علينا. فأنتَ حينما ترى قارورة العطر تحكم على محتواها بأنه عطر، دون فحصه؛ لأن القارورة مخصصة لهذا الأمر. وحينما نستبدل العطر بالماء، فهذا الأمر يتطلب منّا الفحص الدقيق، ويحصل اضطراب وخلط، ونفقد الوضوح والتخصيص والبساطة.

إن كل شيء له وظيفة معينة أو دوراً معيناً، وإلا نقع في التيه والالتباس والتعقيد وتفتيت النظام.

الحقيقة والمجاز

المجاز هو استخدام اللفظ بغير معناه، أو الباس اللفظ غير معناه، أو ملء الإناء بغير محتواه... إلخ.. وعادة يكون هناك تقارب بين المعنى الأصيل والبديل..

(أكل محمد الخبز) و (أكل محمد الذهب) فكلمة (أكل) ـ هنا ـ وُضِعت في معناها الأصيل، وكلمة (أكل) الثانية وضعت في غير معناها، بل هي مستخدمة استخداماً بديلاً؛ لأن الذهب لا يؤكل، بل يُباع.

في الحقيقة أن القرآن أغلبه مجاز[11] يقررُ مرادَه السياقُ والواقعُ وطبيعةُ الحال، وإلا لكان ميتاً لا يصلح، إلا لزمان نزوله..

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا استطعتم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الخيل تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ الله وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ ﴾ [الأنفال/ 60].

فهل نرهب أعداء الله بالخيل، وهم يمتلكون السلاح النووي والهيدروجيني والإلكتروني؟. إن هذا الكلام مجرد مثال، أو جاري مجرى المثال ـ وما أكثر الأمثال في القرآن! ـ فهو مفهوم متعدد المصاديق في كل زمان ومكان، فأي كلام ينفك عن زمانه الذي حصل فيه، فهو ميت يجب قبره ولحده وقراءة سورة الفاتحة عليه، إن كان يستحق قراءتها!.

إنّ مجازية القرآن واضحة في آياته: ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء/72]. ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ . . . ﴾ [الفتح/10].

﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص/88].

فلا يمكن أن يعاقب اللهُ أعمى الدنيا في الآخرة؛ لأنه أعمى!!، كما أن الله لم تكن يده موضوعة فوق أيدي المسلمين حينما كانوا يبايعون الرسول (ص)!!، كما أن الله لا يمكن أن يهلك كل جسمه، ويبقى وجهه عامراً!!.

إن الألفاظ تصححها الوقائع وطبيعة الحال والقرينة والسياق... وإلا فهي خطأ، وإذا لم نستخدم هذا النظام، فلا يوجد خطأ في دنيانا أبداً!!.

إن بعض الشيوخ فهموا الألفاظ في القرآن على ظاهرها، مع أنها تخالف الواقع، وبذلك وقعوا في دوامة وأصابهم الدُّوَارُ المزمن، فجعلوا من الله جسماً مادياً له يدان ورجلان ووجه، له كل صفات البشر... وخاضعاً للزمان والمكان، وكل الاعتبارات الأخرى.

---

[11] المجاز لا يعني عدم الوضوح إذا كان مجاوراً للقرينة.

يذكرني هذا الأمر بقصة واقعية مع امرأه عندها ولدان، وكان الصغير مؤذياً، فقالت للكبير بلهجتها العامية: ((روحْ اذبحْ أخوك))!!، فراح يركض وأخذ سكيناً، وذهب لأخيه ووضع السكين على رقبته؛ ليذبحه، ولولا حضور أمه؛ لقطع رأسه!!.

لقد فهم الكلام على حقيقته!!.. وحدثت قصة طريفة مع شخص من أهل ذي قار يعمل في بغداد مع بنّا بيوت. كان يناوش الطابوق للبنّا، الذي يسمونه في اللهجة العراقية (الخلفة!)، وكانوا يسمون الطابوقة التي أُخذ ثلثاً منها (كيّة)، فقال له بلهجته العراقية: (جيبْ لِيْ كيّة)، فراح مسرعاً لمكان السيارات، فناداه أصحابه: أينَ ذاهب يا فلان؟. فقال: أريد أن أأجر سيارة كية!. فضحكوا وقالوا له: كية، يعني طابوقة (ثليثية[12])!!!.

الكلام وظرفية الزمان والمكان

إن الكلام باعتباره وسيلة تواصل، وتفاهم بين البشر، فهو يخضع لقوانين ظرفية الزمان والمكان (الزمكان)، فكل زمان له مفاهيم غير الزمان الآخر، وربما يعمم لفظ خاص، أو يخصص لفظ عام، أو يتوسع أو يضيق بشكل ملحوظ، وربما يملأ بمحتوى غير محتواه الأصلي، أو يهمل.. كما أن المفهوم اللغوي غير المفهوم الشرعي. والشرعي غير العرفي؛ لأنَّ اللغةَ أعمُّ من العرف والاِصطلاح... فكل علم يكوّن له مصطلحات خاصة به، رغم أن هذه المصطلحات لفظها الأصلي موجود مسبقاً، لكن يتم تضييقه أو زحزحته من مكانه نسبياً.

حقيقة لابد منها.

لابدّ من اِخضاع الكلام لزمكانه وثقافة أهله في كثير من الأحيان؛ لأن الكلام يتأثر فيهما؛ لأن الكلام ابن زمانه وبيئته، ونحن نلمس أن في كل فترة من الزمان تختفي ألفاظ وتظهر أخرى، وتعمم ألفاظ خاصة، وتخصص ألفاظ عامة، ويتغير معنى ألفاظ أخرى...

استمعت كثيراً إلى لهجة بعض من رجال البادية كبار السن، فوجدت أنهم يستعملون كلمات وتركيبات نادرة، لم يستعملها، حتى أبناؤهم!. وأغلب كلامهم مجازي. وكثيراً ما يستخدمون الأمثال، خصوصاً إذا أعجبهم شيءٌ ما، أو أساءهم!.

فلسفة النحاة.

---

[12] يعني أخذ ثلثها، وبقي ثلثاها.

لقد كان النحاة يتفلسفون بالنحو من أجل تضخيم الكتب التي كان يُعطي (ولاةُ الأمر) وزنها مالاً من الأموال المنهوبة من الفقراء، التي تأتيهم بغير تعب ولا نصب!.. فالنحاة نحتوا كثيراً من فلسفات علم النحو، حالهم حال فقهاء السلطان في صُنْع الأحاديث التي تمجد السلاطين، وتضعهم في مصاف الأنبياء!!.. ولم يكن النحاة يعرفون كل شيء في النحو، فربما جهلوا أموراً بسيطة..

يذكر ابن الجوزي في كتابه (الأذكياء): ((ذُكر أن رجلاً دعا المبرّد بالبصرة مع جماعة فغنت جارية من وراء الستار، وأنشأت تقول:

وقالوا لها هذا حبيبك معرضاً فقالت إلا إعراضه أيسر الخطب

فما هي إلا نظرة بتبسم فتصطك رجلاه ويسقط للجنب

فطرب كل من حضر، إلا المبرد، فقال له صاحب المجلس: كنتَ أحقّ الناس بالطرب. فقالت الجارية: دعه يا مولاي، فإنه سمعني أقول: (هذا حبيبك معرضاً)، فظنني لحنت، ولم يعلم أن ابن مسعود قرأ: (وهذا بعلي شيخاً). قال فطرب المبرد إلى أن شق ثوبه)).

مع العلم أن هذه الحفلة "المباركة" التي تقيمها "الجواري الحِسان" هي تُقام على شرف (خليفة الله في أرضه) والآمر الناهي على خلقه، والناطق الرسمي الحصري باسْمه!!.

ليس غريباً أن يقيم (خليفة الله!) حفلة حمراء تُقرع فيها الكؤوس، ويُذهب الخمرُ عقل الرؤوس، وتشتعل حرارتها كجمر الغضى!، وتذهب أحزان زمن قد مضى، لكن الغريب والمريب من (خليفة الله!) كيف يشرب الخمر ويدعي أنه حامي حمى الإسلام، والذائد عن حياضه التي يشرب منها الأنام؟!.

ثم نرى نحوينا الهمام المقدام يصاب بالضجر والكدر، ويعرض عن (شق ثوبه) من أجل نَصْبِ كلمة صدرت من فم جارية لا تهتم بالكلام بقدر ما تهتم بالغنج والميوعة، ورضا الخليفة!!، لكنه لم يضجر ولم يكدر لما يفعله (خليفةُ الله)! من تبذير أموال المسلمين الجياع على بطون الجواري الجميلة والخمور المعتقة، ونزواته الخبيثة ورغباته المدمرة وشهواته القاتلة!، التي من أجلها لا يهمه قتل كل سكان الكرة الأرضية!. وقد حلل له الوعاظ، الذين يرتزقون على موائده الوثيرة ـ قتل ثلث الناس إذا رأى ذلك!. (الناس مجرد نعاج أو دجاج في مزرعة الخليفة)!!.

ما المبرد، إلا نموذجاً بسيطاً من النماذج، التي تعيش على موائد الحكام الوثيرة، وهو مستعد أن يحرّف القرآن إن كان ذلك يرضي (الخليفة)!!.

لا نريد أن نقلل من أهمية الرجل، فهو علم من الأعلام بلا شك، وأغلب ما قاله هو كلام مميز، ولكن هذه الحقيقة التي يجب أن نعترف بها، ولو كانت مرة كمرارة الحنظل، لا تستسيغها الأفواه!.

وكانت جارية تغني عند "الواثق بالله" العباسي، فغنت:

أَظَلُومُ إنّ مصابَكمْ رَجُلاً أهدى السلامَ إليكمُ ظُلْمُ

فقد نصبت كلمة (رجل) فأنكر عليها (الواثق بالله العباسي) هذا الأمر؛ لأنه ظن أنّ (رجلاً) خبر لـ (إنّ) فشرح له المازني الأمر، وقال له: إن (رجلاً) مفعول للمصدر (مصابكم). وخبر (إنّ) هو (ظُلْمُ). وبهذا يكون المصدرُ عاملاً ومعمولاً، مع أنهم لا يجوزون ذلك، وفقاً للفلسفة اليونانية القديمة.

إن الأمر الذي أوهم الواثق العباسي، هو بعد خبر (أنّ) عن مكانه وحلول كلمة (رجل) مكان الخبر.

ليت "الواثق" اهتم بالناس كاهتمامه بالكلام وفذلكته، ولم يسلط سيفه على رقابهم، وزبانيته الذين لا يعرفون الرحمة ولا الرأفة.

النحاةُ وفلسفة الكلام

قولب النحاة النحوَ بقوالب المنطق الأرسطي، وخصوصاً البصريين، فقد استخدم البصريون المنطق الأرسطي لقياس النحو، وجعلوه ميزاناً للنحو، ومعرفة صحيحه من خطئِهِ!.. وهذا غير صحيح في عمومه؛ لأن النحو، أو اللغة من العلوم الاِجتماعية، وليس من العلوم الرياضية، فهي تتحرك بتحرك المجتمع، وليس لها قالب ثابت، أو قياس علمي، وإنما قياسها قياسي ذوقي يقرره المجتمع نفسه.

كان من المفترض على النحاة أن يدرسوا اللغة العربية دراسة وصفية، أي أنهم يستقرِئونها، ثم يستخرجون القاعدة من خلال الاستقراء ـ إن تمكنوا من ذلك ـ ولا يتبعون القاعدة الاِستنباطية، أي أنهم يضعون قاعدة، ثم يدخلون فيها الكلام أو الكلمة.. هذا ليس من حقهم أبداً؛ لأنهم بهذا العمل يضعون لغة مفترضة، وليس واقعية.

وقد صنع النحاة العامل الفلسفي، ثم بنوا عليه كل القواعد النحوية، حتى أصبح النحو مجموعة من القواعد الفلسفية والمنطقية الأرسطية. مع أن العرب لا يعرفون هذا النظام. وكانت الحركات التي في أواخر الكلمات، فالضمة غالباً للإسناد، والخفض للإضافة، والنصب لما عدا ذلك، كما أنهم ألزموا بعض الكلمات حركة واحدة.

وهذه الحركات يضعونها للدلالة على الكلمات التي تصعب معرفتها بسبب التقديم والتأخير الشعري والسجعي والبلاغي... وأحياناً يتخلون عن هذه القاعدة إن لبّى السياقُ الغرضَ..

الترتيب حسب العَمَل

يعتقد النحاة أن النصب . مثلاً . سببه الفاعل، فهو نُصب؛ لأن فعل الفاعل وقع عليه... فهناك عامل عمل هذا العمل... والحقيقة أن هذا غير صحيح؛ لأن علامة الرفع، أو النصب ... إنما وضُعت بمثابة أرقام تسلسلية للدلالة على عناصر الجملة المبعثرة؛ لأن لغة العرب لغة شعر وسجع وأدب... وليس بسبب عامل يعمل في الكلمة، وكأن الكلمات تتفاعل كيميائياً، أو بينها علة ومعلول، وليس هي اِجتماعية!.

وأنتَ تجد العرب أحياناً يرفعون المنصوب، والعكس اعتماداً على طبيعة الحال، أو السياق المرتب، أو فهم السامع... لكن النحاة وضعوا هذا تحت عناوين من اختراعهم حفاظاً على القاعدة الذهنية، ومع ذلك لم يستطيعوا تبرير كل ما ورد!.

فمثلاً:

(**جحرُ ضبٍ خَربٍ**) اعتمد المتكلم على الواقع، فقد جرَّ (خرب) بدل رفعه؛ لأن لا يستساغ أن يوصف الضب بال(خرب) حقيقةً، ولكن لا يستبعد مجازاً، بطريقة ضعيفة جداً.

فأسمى ذلك النحاةُ (مجروراً بالجوار) فهو مجرور؛ لأن جواره مجرور!، ونسوْا أن هذا خرم للقاعدة، سواء كان مجروراً بالجوار، أو البُعد!!، فكل ما صنعوه هو عنوان ترقيعي يضر أكثر ممّا ينفع!.. حقيقة أن يمكن أن يكون الكلامُ سلساً ومرتباً ما دام الحاكم هي الحركات في أواخر الكلمات!.

لقد رتّب النحاةُ الأدوات على حسب عملها، وليس على حسب معانيها، فكان الترتيب متداخلاً، فتجد (نفي مع اثبات)، و (موصول مع مؤكِّد)... فمثلاً، رتبوا (كان، وأمسى، وأصبح... مع

"ليس") مع أن معنى " ليس" هو النفي الحالي: (الجوُّ باردٌ) (ليْسَ الجوُّ بارداً). فالجملة الأولى مثبتة، والثانية منفية. هذا هو كل ما عملته "ليس" فهي نافية، وهو المطلوب بغض النظر عن فعليتها، وبهذا يفترض أن يكون ترتيبها مع أدوات النفي (ليس، لا، إنْ، كلا، لم، لن...). وليس مع الأفعال التي تُخبر عن الماضي، كـ(كان، وأصبح...) فالمفروض أن يكون الترتيب على حسب التغيير المعنوي في الجملة، وليس التغيير اللفظي في الجملة، فـ(ليس) تغييرها المعنوي في الجملة، هو (النفي)، وهو المطلوب، لكن تغييرها اللفظي في الجملة، هو (الرفع في المبتدأ، والنصب في الخبر). وهذا غير مطلوب؛ لأنه تغيير شكلي، فلو حذفنا الحركات، وقلنا: (ليس الجوْ مَاطرْ)، لعرف السامع أننا ننفي المطر عن الجو.

إن الحركات ليست أصيلة في الكلام، بل دخيلة، ودلالتها جزئية، وليست كلية، وإذا أربكت المعنى الذي هو الأصل في جملةٍ ما ـ وجب التخلي عنها، وأخذ المعنى من النص مباشرة.

الجمع..

الصحيح هو جمع كل أدوات النفي تحت عنوان واحد، ثم تُقسم إلى أدوات نفي حال واستقبال وماض، وبقية التقاسيم للتفصيل من حرفية وفعلية، وعاملة وغير عاملة، بشرط أن لا يتداخل التقسيم. وهذا هو التقسيم العلمي. أما أن نجمع أدوات النفي مع الإثبات تحت عنوان العمل الموحد، فهذا تبويب غير علمي، فـ"ليس" إذا كانت أخت "كان" من الرضاعة؛ بسبب اتحاد عملهما اللفظي في الكلمة، فهي أخت "لا" الشقيقة؛ بسبب اتحاد عملهما المعنوي في الجملة.

إن ما عمله النحاة، هو كعمل الشخص الذي يرتب الأدوات معتمداً على اللون (الطلاء) الخارجي، فيضع (السكين، والساعة، والخاتم، والقلم، والهاتف...) معاً معتمداً على اللون الموحد!. مع أن السكين له وظيفة غير وظيفة الساعة... فالسكين للتقطيع... والساعة لمعرفة الوقت، والخاتم للزينة، والقلم للكتابة، والهاتف للاِتصال...

لغة "أكلوني البراغيث"

إن لغة "أكلوني البراغيث" لغة صحيحة، وقد وردت في القرآن، لكن بعض النحاة راحوا يلتمسون الحجج الواهية حتى يبعدوها عن القرآن.. في الحقيقة أن هذا العداء لهذه الطريقة؛ لأنها تخالف قواعدهم التي وضعوها!!.. يقول الدميري في كتابه "حياة الحيوان": ((... وقولهم:

أكلوني البراغيث لغة طي، وهي لغة ثابتة خرجوا عليها قوله تعالى: ﴿وأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ على أحد المذاهب وقوله عز وجل ﴿خشعاً أبصارهم﴾ ومثل: ﴿يتعاقبون فيكم ملائكة﴾، وقوله في صحيح مسلم وغيره: "حتى احمرتا عيناه" وأشباهه كثيرة معروفة. وقال سيبويه: لغة أكلوني البراغيث ليست في القرآن، قال والضمير في ﴿وأَسَرُّوا النّجوَى﴾ فاعل والذين بدل منه)).

سيبويه ينكرها رَغْم أنها موجودة!!، وكل ما فعله هو تخريج لها، وليس نفياً لها.. طبعاً هناك إعراب آخر لها، وهو أنّ الواوَ مجرد حرف لا إعراب له، والفاعل هو (الذين).

ولم يضف النحاةُ فاعلينِ لفعل واحد.. ولا ندري ما الضير أن يكون للفعل فاعلان؟!.. إنها قولبة الكلام بقوالب المنطق الأرسطي!.. والحقيقة نستطيع أن نقول: إن (الواو) فاعل أول لفظاً، و (ملائكة) فاعل ثان لفظاً، مع اتحاد المعنى في الفاعلية.. ويكون هذا الرأي مضافاً لبقية الآراء. والأقرب أن الواو مجرد علامة دالة على الجمع، وليس فاعلاً.

رفع المنصوب بعد أداة النصب!

من المتاهات التي أربكت النحاة في نصب الفعل بعد (أن) هي وجود أفعال مرفوعة بعدها!!

﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ **أَلَّا يَقْدِرُونَ** عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد/29]

تبرير النحاة لهذا، هو أن هذه الـ(أن) هي (أنَّ) بعد التخفيف، واسمها هو ضمير الشأن، فيكون أصل الكلام، هكذا (أنَّه لا يقدرون).. وبما أن (أنّ) لا تدخل، إلا على الأسماء، قالوا: تدخل على الأفعال بعد التخفيف!.

إنهم يريدون تقنين قاعدة عامة.. وهذا يتطلب لَيَّ الأعناق، حتى تدخل في قفص القاعدة المفترضة!.

وأنت تجد بعض التخريجات غير مستساغة ومملة ومعقدة تعقيداً شديداً، وتجد الدارسين يدرسون هذه القواعد سنوات طوال، ومع ذلك لا يحيطون بها علماً، بل يجهلون منها أكثر ممّا يعلمون.

إن ما يقوله النحاة أو اللغويون كثير منه منتحل مفتعل مصنوع في مختبراتهم، وخصوصاً في العصر العباسي، الذي اهتم بالنحو اهتماماً كبيراً وخصص جوائز قيمة لسدنة هذين العلمين ممّا حفّز بعض الانتهازيين وجعلهم ينتحلون الفذلكات من أجل الحصول على الدنانير والجوائز.

كما أنهم قرروا قواعد نحوية تلوي أعناق الآيات وتذبحها بسكاكين التحريف، من أجل أغراض لمصلحة الخلفاء والحظوة والتزلف لهم، بل بعضهم ليسوا سوى صعاليك ومرتزقة يعملون ما يمليه عليهم "الخليفة"!.

لقد لعبت السياسة دوراً هداماً، هدم أسوار الدين، وخنقت دين محمد (ص) وآله (ع) حتى كاد أن يموت!، ولا زال الدين يعاني من الجروح والقروح والتشوهات التي خلفتها السياسات البائدة. والسياسات الحالية أشدّ فتكاً!.

لقد ركبَ الخلفاءُ والملوكُ والأمراءُ والسلاطينُ والرؤساءُ صهوة الدين ووضعوا اللجام في فمه، وسخروه لمصلحتهم، ونصبوا "فقهاء" و "محدثين" فصنعوا لهم ديناً موازياً لدين محمد (ص). وبالأحرى هو ليس ديناً، وإنما هو سياسة غير حميدة ألبسوها جلباب الدين، من أجل خداع الناس.

إن ما يسمى (خلفاء) بني أمية وبني العباس كان كل ما يهمهم الحكم والسلطة. والذي يقرأ تاريخهم يجده حافلاً بإهانة الدين والنبي (ص) وأهل بيته (ص)، فبعضهم هدم الكعبة، وبعضهم مزق القرآن، وبعضهم كان يقول: " لا خبر جاء ولا وحي نزل"!!،وبعضهم قتل أهل بيت النبي محمد (ص)، وكانوا أكثر خلق الله طراً أجمعينا فسقاً وفجوراً وإجراماً وشذوذاً، وكانوا مهووسين بالزنا واللواط!!.

المعنى هو الأصل

القواعد التي نقرؤها في كتب النحو ليست معصومة من الخطأ، بل قد تكون جزئية تم تعميمها من قبل علماء النحو.. والدليل أن بعض الآيات في القرآن تخالف هذه القواعد.. وإليك شذرات من هذه الأدلة.

﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ [الحج/19].

ففي القواعد النحوية واللغوية: ﴿خضتم كالذي خاضوا﴾، بل "خضتم كالذين خاضوا"؛ لأن الاسم الموصول "الذي" هو للمفرد وليس للجمع، فلا يقال: "جاء المسلمون الذي يسكنون الجزيرة".. بل "جاء المسلمون الذين يسكنون الجزيرة".

طبعاً النحاة كعادتهم في صناعة المخارج، قالوا: هناك ضمير مفرد بعد واو الجماعة.. والتقدير (خاضوه).

﴿... وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [التوبة/69]

والمتأمل في الآية الكريمة يجد المخرج الذي ابتكروه ضعيفاً؛ لأن معنى الآية حسب ظاهرها، هكذا (خضتم مثل الذين يخوضون) فالتمثيل عائد على الأشخاص أنفسهم، وليس على فعلهم.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة/17]

فقد جاءَت الكلمات: ﴿بِنُورِهِمْ﴾، ﴿تَرَكَهُمْ﴾، ﴿يُبْصِرُونَ﴾ غير مطابقة للكلمات التي سبقتها: ﴿الَّذِي﴾، ﴿اسْتَوْقَدَ﴾، ﴿حَوْلَهُ﴾، فالأولى بصيغة المفرد، والثانية بصيغة الجمع.. فراح النحويون يلتمسون المخارج العديدة المتباينة.. وحتى تكون الكلمات متطابقة لابد أن تكون (نوره.. تركه.. يبصر). بدل (نورهم.. تركهم.. يبصرون)..

كما قلنا: إن اللغة العربية لغة أدب.. وليس دائماً تراعي القواعد، فهي لغة غير صارمة في اتّباع القواعد. فقواعدها تقريبية تسامحية. فلغة الشعر والسجع لا يمكن أن تكون صارمة، وإلا تخلت عن أغلب حلاوة السجع والقافية... لكن هذا لا يشمل الآية الكريمة، وتغييرها من المفرد إلى الجمع.

في شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك:

((ومن العرب من يجعل المثنى والملحق به بالألف مطلقاً: رفعاً، ونصباً، وجراً، فيقول: جاء الزيدان كلاهما، ورأيت الزيدان كلاهما، ومررت بالزيدان كلاهما)) ا هـ .

((وقد ينصب الفاعل ويرفع المفعول إذا أمن اللبس، وقد ورد عن العرب قولهم خرق الثوبُ المسمارَ، وقولهم: كسر الزجاجُ الحجرَ. وقال الأخطل:

مثلُ القنافذِ هداجونَ قد بلغتْ نجرانُ أو بلغت سوآتهم هجرُ

وقال عمر بن أبي ربيعة المخزومي:

ألــم تسأل الأطــلالَ و المتــربعا ببطنِ حُلياتٍ دوارسَ أربعَا

إلى الشرى من وادي المغمَّس بدّلتْ معالمُه و بلا ونكباءَ زعزعَا

وربما نصبوا الفاعل والمفعول جميعاً، كما قال الراجز:

قد سالمَ الحياتِ منه القدما الأفعوانَ والشجاعَ الشّجعمَا

وربما رفعوهما جميعاً، كما قال الشاعر:

إنّ من صادَ عقعقاً لمشومُ كيف من صاد عقعقانِ وبومُ))[13] .

وعلى حسب مقاييس علم النحو لابد أن يقول: (عقعقينِ وبوماً) وليس (عقيقانِ وبومُ).

إذا أردنا أن نعرف طريقة الكلام أو صياغة الجمل، فعلينا أن نستمع للهجات العربية في عصرنا الحاضر، فاللهجات القديمة التي أطلقوا عليها فصحى، هي لا تختلف عن لهجاتنا الحالية وتعددها وتساهلها، فهم يعتمدون على السياق كثيراً وفهم المخاطب، وعلى الإعراب أيضاً، لكن ليس دائماً.. ويبدو أن علامات الإعراب لغة سامية قديمة بدأ التخلص منها شيئاً

[13] شرح ابن عقيل، ومعه منحة الجليل لمحمد محيي الدين.

فشيئاً؛ لتعقيدها، ومع ذلك لم تكن هذه العلامات صارمة ودليل متفرد، بل هي جزء من الدلالة، حالها حال السياق. بل السياق أكثر تفوقاً، وهو الأصل.

وقد بالغ النحاة في النحو حتى جعلوا الأصل في الكلمات الحركة، وليس السكون. والحقيقة أن السكون هو الأصل، والحركة عارضة، فهي صفات وليست ذاتاً؛ لأن حذفها لا يلغي الأصل. وما دام الأصل لم يلغَ بإلغائها، فهذا يبين بكل وضوح أنها عرضية، وليست أصلية.

والحقيقة أن الصرف (الاشتقاق) لا يستغنى عنه أبداً، بخلاف النحو الذي نستطيع الاستغناء عنه أحياناً. والدليل أن كل الكتّاب قديماً وحديثاً لا يكتبون الحركات، التي هي مادة النحو الأساسية. ولو كان القدماء ـ أعني بهم هنا ما قبل الإسلام ـ يهتمون بالحركات، لرسموها على شكل حروف أو رسموا لها رموزاً صغيرة، كما هي اليوم، أو كبيرة كما في بعض اللغات كالإنكليزية... بل نجد أن القدماء لا يهتمون حتى ببعض الحروف، كـ(الألف، والواو، والياء)، وقد تابعهم النحاة وكتّاب العرب ونساخ القرآن في هذا النظام البائس!، بل نجد بعض النحاة والفقهاء تعصبوا وأنكروا الحركات والضوابط. بل لا زال بعض المتزمتين في عصرنا الحاضر يحرمون كتابة القرآن بالخط الحديث!، مع أن القرآن الكريم كُتب قديماً برسوم وخطوط مختلفة، كالحجازي والكوفي والعثماني والمغربي... وبرموز مختلفة مشرقية ومغربية، بل حركات مختلفة. فمثلاً علامة السكون كتبت بثلاثة رسوم: (رأس حاء صغيرة.. دائرة صغيرة جوفاء.. جرّة أو خط).

تقسيم النحاة للكلام

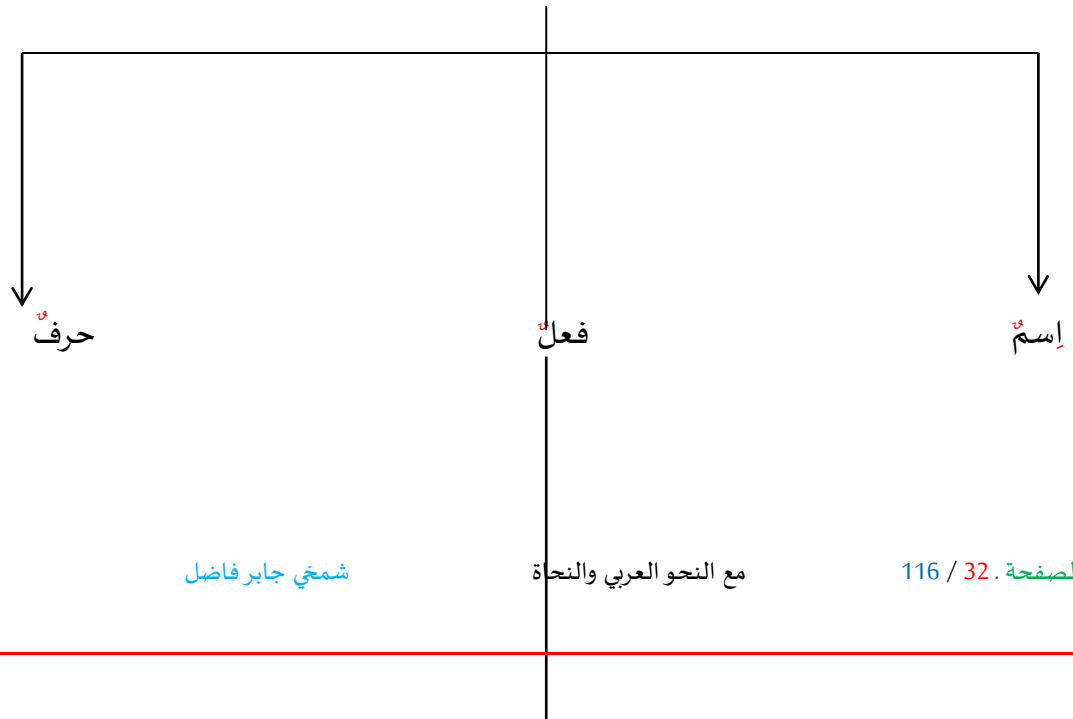

عدد علامات الاسم بصوره عامة خمس علامات: (الجر.. التنوين.. النداء.. اَل.. الإسناد).. وعلامات الفعل أربع علامات بصورة عامة: (تاء الضمير.. تاء التأنيث.. وياء المخاطبة المؤنثة.. ونون التوكيد).. ولا توجد علامة للحرف. لكن هذه العلامات لا تنطبق على جميع المذكور، فمثلاً كلمة (هيهات[14]) لا تنطق عليها علامات الأسماء.. وهي عند البصريين (اسم فعل)، وعند الكوفيين (فعل).

وكلام الكوفيين من أن (هيهاتَ) فعل بعيد عن الواقع. وكل دليلهم أنه قبل تاء التأنيث الساكنة!!.. مع أن تاء التأنيث لا تخص الأفعال، بل تدخل على الحروف، ثم من قال لهم إن هذه التاء للتأنيث، وليس من أصل الفعل؟!. فهي مفتوحة، ولا دليل على أنها فتحت لالتقاء ساكنين، ثم حينما نحذفها يختل المعنى.

ما أربك النحاةُ هو أنهم وجدوا كلمات لا تتناسب مع تصنيفهم الثلاثي، ولا تعريفاتهم، ثم ما زاد الطين بلة، هو اعتمادهم على حركات أواخر الكلمات على حساب المعنى، ثم إنهم وجدوا بعض العلامات تشترك فيها الحروف والأفعال، مثل تاء التأنيث، والأسماء والأفعال، كما في كلمة (هيهات)، وفقاً لرأي من يجعلها اسماً.

عرفوا الاسم: "**بأنه ما دلّ على مسمى**[15]".. وعرفوا الفعل: "**بأنه ما دلّ على حدث مقرون بزمن**". ولم يعرفوا الحرف. وبعضهم عرفه: "**بأنه ما دلّ على معنى في غيره**".

وهذا التعريفات، هي تعريفات تقريبية رسمية، وليست دقية حدية.. طبعاً هي تعريفات مؤدية للغرض، ولا بأس بها ما دمنا نروم التقريب العرفي، وإلا فلا.

---

[14] قال البعض: التاء للتأنيث، لكنها كُسرت بسبب التقاء ساكنين. وبهذا تكون قد انطبقت عليها علامةٌ من علامات الأفعال.. لكن هذا غير صريح.

[15] المصدر عندهم اسم، لكنه لا يدل على مسمى، بل يدل على حدث.

قولهم الفعل: إن الفعل يدل على حدث و وزمان. هذا يخالف ما ذهبوا إليه، فـ(نعم، وبئس، وليس، وعسى...) لا تحمل زمناً ولا حدثاً، ومع ذلك أدرجوها مع الأفعال، ولو قالوا: ((إن الفعل ما قبل تاء الضمير))؛ لدخل في هذا التعريف كل الأفعال آنفة الذكر.

إن (بئس، ونعم، وليس، وعسى...) ليس أفعالاً.. الفعل هو ما دل على زمن، ولكن نستطيع أن نصنف هذه الكلمات أنها مشتركة بين الاسم والفعل، لما تحمله من علامات فعلية، وليس لما تحمله من زمن.. إن علامة الفعل الفريدة، هي الزمن. وعلامة المصدر، هي الحدث، وعلامة الاسم هي المعنى، وعلامة الحرف، هي عدم استقلالية معناه منفرداً عن جملته.

طبعاً الفعل يحتاج إلى فاعل، والحدث يحتاج إلى مُحدث.. فالفعل عادة يدل على زمن وحدث. واسم الفاعل دال على حدث فقط.. إذن هو يحتاج إلى محدث، فمثلاً قولنا: محمدٌ كاتبٌ الدرس)، فالدرس مفعول به لاسم الفاعل، فاسْم الفاعل هو فعل معنى، اسم لفظاً، وكذا المصدر إن أخذ معنى الفعل.. يجب أن يكون التعامل مع المعنى الحقيقي الواقعي، إن أردنا الدقة.. يقول تعالى:﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ . . . ﴾ [محمد/4].

فضرب، معناها: اضربوا سواء خفض ما بعدها أو نصب، فالرقاب مفعولة في كلا الحالتين..

وقال أبو البركات الأنباري في كتابه "أسرار العربية":

((... فإن قيل لم سمي الاسم اسماً. قيل اختلف النحويون في ذلك فذهب البصريون إلى أنه سمي اسماً لوجهين: أحدهما أنه سمي على مسماه وعلا على ما تحته من معناه، فسمي اسماً لذلك. والوجه الثاني أن هذه الأقسام الثلاثة لها ثلاث مراتب، فمنها ما يخبر يه ويخبر عنه. وهو الاسم نحو زيد قائم، ومنها ما يخبر به ولا يخبر عنه، وهو الفعل نحو: قام زيد ومنها ما لا يخبر به، ولا يخبر عنه. وهو الحرف نحو: هل وبل وما أشبه ذلك)).

والذي يؤاخذ على بعضهم، إنهم يجعلون (هيهات) اسم فعل، وهو غير دال على معنى ذاتي (كالشخص)، أو معنوي (كالزمان) أو وجداني (كالحُبِّ)، كما أنهم يجعلون المصدر من الأسماء البحتة، رغم دلالته على الحدث، وليس الذات أو المعنى... فمثلاً (أكلٌ) دال على حدث، وليس على معنى أو ذات. والحدث دال عليه الفعل أيضاً.. نعم يقبل الرفع والنصب والجر.

كما أن الأفعال ليست كلها تدل على حدث، بل بعضها على زمن فقط، مثل (كان) وأخواتها. ولا تتطلب فاعلاً، بل مبتدأ وخبر. كما أن (نعمَ، وبئسَ) لا تدلان على زمن ولا حدث، بل كل ما في الأمر أنهما قبلتا تاء التأنيث، فتم الحكم بفعليتهما!.. والبعض قال: إنهما اسمان؛ لأنه

وجدهما لا يحملان في حوزتيهما لا زماناً ولا حدثاً!!.. والملاحِظُ لهما يرى أنهما يدلان على المدح، أو الذم، فحسب.. كما أنهما قد يردان بعد النداء. وهذا علامة من علامات الأسماء. بل تصدرهما حرف الجر، ففي كتاب أسرار العربية لأبي البركات الأنباري:

((وحكي عن بعض العرب أنه بشر بمولودة فقيل: نعم المولودة مولودتك، فقال: والله ما هي بنعم المولودة نصرتها بكاء وبرها سرقة. وحكي عن بعض العرب أنه قال: نعم السير على بئس العير. فادخلوا عليهما حرف الجر. وحرف الجر يختص بالأسماء، فدل على أنهما اسمان. والوجه الثاني أن العرب تقول: يا نعم المولى ويا نعم النصير فنداؤهم نعم يدل على أنها اسم؛ لأن النداء من خصائص الأسماء. والوجه الثالث أنهم قالوا: الدليل على أنهما ليسا بفعلين أنه لا يحسن اقتران الزمان بهما كسائر الأفعال ألا ترى أنه لا يحسن أن تقول نعم الرجل أمس ولا بئس الرجل غدا فلما لم يحسن اقتران الزمان بهما دل على أنهما ليسا بفعلين. والوجه الرابع أنهما لا يتصرفان ولو كانا فعلين لكانا متصرفين لأن التصرف من خصائص الأفعال فلما لم يتصرفا دل على أنهما ليسا بفعلين. والوجه الخامس أنه قد جاء عن العرب أنهم قالوا نعيم الرجل زيد وليس في أمثلة الأفعال شيء على وزن فعيل، فدل على صحة ما ذهبنا إليه. والصحيح ما ذهب إليه البصريون، وأما ما استدل به الكوفيون، ففاسد أما قولهم أنهما اسمان لدخول حرف الجر عليهما، فلنا هذا فاسد؛ لأن حرف الجر إنما دخل عليهما على تقدير الحكاية، فلا يدل على أنهما اسمان؛ لأن حرف الجر قد دخل على تقدير الحكاية على ما هو فعل في الحقيقة، كقوله - من الرجز - : "والله ما ليلي بنام صاحبه")).

دخول حرف الجر، ويا النداء، وعدم التصريف، وعدم الزمانية، والتصغير، كلها لا تدل على الاسمية.. فقط تاء التأنيث دالة!.

ثم يقول: إن حرف الجر جاء على نحو الحكاية.. وماذا عن النداء وعدم التصريف وانعدام الزمان والتصغير؟.. هل جاءت على نحو الحكاية؟!.

المشكلة كامنة في تقسيم النحاة؛ لأنه تقسيم تقريبي عرفي، وليس علمياً دقياً.. فمثلاً المصدر ليس اسماً بحتاً، بل مشترك بين الاسم والفعل ـ وهو للفعل أقرب من حيث المعنى ـ فهو دال على حدث من جانب، وهذه صفة فعلية، بل أعطوه الفعلية، فقالوا مفعول للمصدر.. ومن جانب قابل للرفع والنصب والجر، وهي صفات اسمية.. (سنفصل ذلك لاحقاً).

أما (ليس) فلا تُشم منها رائحتا: الزمان أو الحدث أبداً، فكل ما في الأمر أنها نافية نفياً حالياً آنياً، وقبلت تاء التأنيث!. فأخذتْ حكم الفعل.. يبدو أن محكمة السادة النحاة سريعة الحكم، لا تتطلب فريق دفاع ولا اِدعاء عام!!.

في كتاب (متن الأجرومية، ودروس في النحو) للشيخ أحمد قصير العاملي/ ص83:

الجوازم التي تجزم فعلين... : إنْ.. ما.. مّنْ.. مهما.. إذما.. أيُّ.. متى.. أيّانَ.. أينَ.. أنّى.. حيثما.. إذا[16].. في الشعر خاصة. أي أن (إذا) تجزم في الشعر فقط[17].

وفي كتاب (التحفة السنية بشرح المقدمة الأجرومية) لمحمد محيي الدين/ ص 75 ـ 76:

ذكر أن المتفق على اسميتها، فتسعة، هي: (مَنْ.. ما.. أيُّ.. متى.. أيانَ.. أينَ.. أنَّى.. حيثما.. كيفما).

أما (إنْ) فذكر أنها حرف بالاتفاق.. وأما المختلف فيه، فقال: وأما النوع الثالث ـ وهو ما اختلف في أنه اسم أو حرف ـ ، والأصح أنه حرف ـ فذلك حرف واحد، وهو (إذْمَا).

أما الكرباسي في شرح قطر الندى (ص/122)، فقال: إنه اسم. وفي شرح الأشموني على ألفية ابن مالك: (("وحرْفٌ إذْ مَا" أي "إذ ما" حرف (كَإنْ) معنى وفاقاً لسيبويه، لا ظرف زمان زيد عليها "ما"، كما ذهب إليه المبرد في أحد قوليه، وابن السراج والفارسي)).

أما مهما، ففيه خلاف، ففي شرح الأشموني على ألفية ابن مالك: ((أما من وما ومتى وأي وأيان وأين وأنَّى وحيثما: فباتفاق، وأما مهما: فعلى الأصح)).

كيف حكمَ البعضُ على أنه اسم، رغم حرفيته عند الآخرين؟!.. الجواب: وجدوا في بعض الشعر، أن الضمير يعود عليه. والضمير لا يعود، إلا على الأسماء.. طبعاً عودة الضمير إليه ليست صريحة.

أما الأدوات التي تجزم فعلين، فهي: (لم.. لمّا.. لام الأمر.. لا الناهية.. جواب الطلب). إلا أنهم اختلفوا في (لمَّا) هل هي حرف أم سم؟.

لكن الأكثر يقول بحرفيتها.. أما دليل من ذهب إلى اسميتها؟.. لأنك، حينما تقرأ: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة/250].

تستطيع أن تضع مكانها (حينما)، فهي دالة على الزمان بشكل واضح وبين. لكن يُرد عليهم: أن الزمان جاء من الفعل الذي يليها، وليس منها. ولكن هذا غير راجح.

---

[16] طبعاً المقصود بهذه الأدوات الاسمية والحرفية، هي جوازم الفعلين، ليس كل الجوازم.

[17] أحياناً للضرورة، وليس دائماً.

وهنا نستدل بعملية الترادف التسامحي الغير دقيق، أو المتوهم... فكثير ممّا يسمى (ترادفاً) هو ليس ترادفاً حقيقياً، بل تسامحي، فالترادف غالباً يحصل؛ بسبب التسامح في الفوارق بين الكلمات وترك اللحاظ، والاتجاه مباشرة للمعنى والاعتبار، فمثلاً كلمة (حصان) و (أدهم) كل منهما يشير لمعنى واحد، لكن الأول باعتباره حصناً، والثاني باعتباره مُداهماً، وكذا (تنزيل) و (كتاب)، فالأول باعتباره منزل، والثاني باعتباره مكتوب. وقد تكون المترادفات بعضها أسماء، وبعضها صفات...

وأحياناً يحصل الترادف، بعد جمع ألفاظ لمعنى واحد، كل لفظ وضعته قبيلة أو بلدة.. فمثلاً عندنا في العراق، البعض من المحافظات تسمّي المواد الغذائية التموينية، التي تعطيها الحكومة ـ (وجبة)، وبعضها (كمية)، وبعضا (حصة)، وبعضها (تغذية).

طبعاً.. كل لفظة لها لحاظ، فـ(وجبة) بلحاظ الوجوب.. و(كمية) بلحاظ الكم.. و(حصة) بلحاظ التقسيم.. و(تغذية) بلحاظ الغذاء.

إن الاستدلال في الترادف على بعض الكلمات، يبين أنها غير واضحة، وما دامت غير واضحة، فرديفها البديل الموضوع مكانها لا يستبعد أن يكونَ موضوعاً في غير محله، فالأصل يندرج على الفرع..

كما أنهم اختلفوا في (ربَّ)، يقول ابن هشام في مغني اللبيب:

((رُبَّ: حرفُ جر، خلافاً للكوفيين في دعوى اسميته، وقولُهم إنه أخبر عنه في قوله:

إنْ يقتلوكَ فإنّ قتلكَ لمْ يكنْ عاراً عليكَ، ورُبَّ قتلٍ عارُ

ممنوعٌ، بل عارُ خبر لمحذوف، والجملة صفة للمجرور، أو خبر للمجرور، إذ هو في موضع مبتدأ)).

وقد أورد ابن هشام في معرض استدلاله على أن (ربّ) ترد للتكثير كثيراً، والتقليل قليلاً!!:

((فمن الأول "رُبما يودُّ الذين كفروا لو كانوا مُسلمين"، وفي الحديث: "**يا رُبَّ كاسيةٍ في الدُنيا عاريةٌ يومَ القيامةِ**".. وسُمع أعرابي يقول: بعد انقضاء رمضان: "**يا رُبَّ صائمهِ لن يصومهُ، ويا رُبّ قائمهِ لن يقومه**".. وهو ممّا تمسك به الكسائي على إعمال اسم الفاعل المجرد بمعنى الماضي، وقال الشاعر:

فيا رُبَّ يومٍ قد لهوتُ وليلةٍ بآنسةٍ كأنّها خطُّ تمثالِ)).

إذا كانت كل هذه الأدلة وردت، فمن حق الكوفيين أن يقولوا باسمية (ربّ)؛ لأن الدلائل واضحة وصريحة، ولا داع للف والدوران.

ولو أنهم قالوا [البصريون والكوفيون] (ربّ) ترد اسم تارة، وتارة فعل، لكان أفضل لهم من التمسك بجانب، وإهمال الجانب الآخر.

طبعاً كل هذا السجال والجدال، الذي لا ينضب، هو بسبب تمسكهم المستميت في الحركات، وإهمالهم المعنى.

تعال معي إلى مغني اللبيب؛ لتعرف مدى ما وصل إليه النحاة من ترقيع نشاز، وتبرير فج، وتلاعب بالمعاني وصل حد الشذوذ.. يقول ابن هشام:

((أن الشيء يعطى حكم الشيء إذا جاوره.. كقول بعضهم "هذا جُحرُ ضبٍ خربٍ". بالجر، والأكثر الرفع، وقال: "كبيرُ أناسٍ في بِجادٍ مُزمَّلِ"..

وقيل به في ﴿وحُورٌ عينٌ﴾ فيمن جرهما، فإن العطف على ﴿ولدانٌ مخلدون﴾ لا على ﴿بأكوابٍ وأباريقَ﴾ إذ ليس المعنى أن الولدان يطوفون عليهم بالحور، وقيل: العطف على ﴿جنّاتِ﴾ وكأنه قيل: المقربون في جنات وفاكهةٍ ولحمِ طيور وحور، وقيل: على (أكوابٍ) باعتبار المعنى، إذ معنى ﴿يطوفُ عليهم ولدانٌ مخلدون بأكوابٍ﴾: ينعمون بأكواب. وقيل في ﴿وأرْجُلِكُم﴾ بالخفض: إنه عطف على ﴿أيديكُم﴾ لا على ﴿برُؤُوسِكُمْ﴾، إذ الأرجل مغسولة لا ممسوحة، ولكنه خفض لمجاورة رؤوسكم. والذي عليه المحققون أن خفض الجوار يكون في النعت قليلاً كما مثلنا، وفي التوكيد نادراً كقوله:

يا صاح بلّغْ ذوي الزّوجاتِ كلّهِمُ أن ليس وصلٌ إذا انحلتْ عُرا الذَّنَبِ

قال الفراء: أنشدنيه أبو الجراح بخفض كلهم، فقلت له هلاّ قلت كلَّهم - يعني النصب - فقال: هو خير من الذي قلته أنا، ثم استنشدته إياه، فأنشدنيه بالخفض))[18].

كل ما قاله النحاة من ترقيع لما يسمى الـ(مجرور بالجوار)، هو مجرد ألفاظ وفذلكات؛ لأن المتكلم اعتمد على طبيعة الحال أو فهم المتكلم، فالقول: (جحرُ ضبٍّ خربٍ)، فـ(خرب) صفة

[18] مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام/ ج 2 ـ 339

للضب وإن كانت مخفوضة؛ لأن المعنى حاكم على اللفظ، وليس العكس. وهذا هو المتبادر، فإن العرف العام يقول إن خرباً صفة للضب.

ولا يهم المتكلم إن كانت هذه الصفة بالجوار أو البعد.. إن هذه الحركة مجرد صوت لا دلالة له، بل مجرد تنغيم.

لو أعرب النحاة الجملة (جحرُ ضبٍ خربٍ) وفقاً للمعنى، لما وقعوا في هذا اللف والدوران الممل.. يخطئون المعنى، لكنهم لا يتجرؤون أن يلغوا الدلالة المزعومة لتلك الحركة التي لا وجود لها في كتابتهم، بل تحذف لفظاً في الوقف.

أما القول: إن الأرجل معطوفة على الأيدي، فهو من أتفه ما يكون!!؛ لأن الآية تقول: ﴿ . . . إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ . . . ﴾ [المائدة/ 6].

فالآية بيّنتْ ما يُغسل، وهو الوجوه والأيدي من خلال الفعل (اغسلوا) الذي تصدرها، ثم بينت كيفية غسل الأيدي بالقول ﴿ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾، وأصبح الفعل (اغسلوا) وما يتعلق به مفروغاً منه، ثم انتقلت الآية إلى الفعل (امسحوا)؛ لتبيّن ما يُمسح، وهو (الرؤوس والأرجل)، ثم بينت كيفية مسح الأرجل بالقول ﴿إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾.. ومهما تكن التبريرات فالأرجل ممسوحة، سواء كانت منصوبة أم مجرورة أم مرفوعة، فالعبرة بالمعنى، ولا يمكن أن تتخطى كلمة (اغسلوا) كل الحواجز الأجنبية؛ لتكون مفعولة لفعل، هي بعيدة عنه كل البعد.. وهل تعطل الفعل (امسحوا) حتى يتخطاه الفعل (اغسلوا) ويصيب الهدف؟!.. ثم إن هناك قراءة تخفض الأرجل، وهي وضحت أن الأرجل ممسوحة، فلماذا يصر المتعصبون مذهبياً على غيّهم وتأخذهم العزة بالخطأ؟!!. ثم إن هذا الأسلوب من الكلام مخالف للبيان والفصاحة. ولا يوجد كلام عربي موثوق يؤيده. ثم لا يوجد مانع عقلي أو عِلمي، أو حتى عرفي يجعل الأرجل مستحيلة المسح.

وحتى في اللهجة العامية، إذا قيل ـ مثلاً ـ : (مسحت وجهي ورأسي، وغسلت يديّ ورجليّ)، فلا يأتي شخص متنطع!، فيقول: كان قصد المتكلم أن يمسح يديه اتباعاً للوجه والرأس.. والغسل خاص بالرجلين لأنهما أولى به.

للأسف النحو لم يقتصر على كلام العرب، بل دخلت فيه آراء الفقهاء، وسخرته لمذاهبها ومسخته مسخاً، ولم يقتصر على فذلكات النحاة "المتفلسفين" وتحول النحو إلى مجموعة من

الآراء يقرها فلان، ويعارضها "عِلّان".. وهذا أكبر دليل على أن النحو لم يكن نموذجاً، وصفياً للغة العربية، بل هو فذلكات صناعية أماتت المعنى بمحلول الفلسفة، بل زحزحت المعاني عن مكانها الأصلي، ووضعت مكانها معانيَ افتراضية أجنبية!.

الترتيب بالأرقام.

وهذه طريقة بيانية بواسطة الأرقام الرياضية، ودعنا نرمز للفعل برقم (1) وللمفعول برقم (2)، وللمعطوف عليه برقم (3) وهكذا...

(**1** 2 3 **1** 2 3)، وهذه الطريقة المرتبة، وفقاً للفعل ومفعولَيْه، فرقم (1) هو الفعل (اغسلوا)، ورقم (2 ـ 3) الوجوه والأجل. ورقم (1) الثاني، فعل (امسحوا)، ورقم (2 ـ 3) الرؤوس والأرجل.

(**1** 2 3 **1** 2 4)، وكما ترى الرقم (4) صار من مجموعة عناصر الرقم: (1) الأول، مع أنه يقع في مجموعة الرقم: (1) الثاني.

نعود لـ"فاجعة"! المجرور بالجوار، التي أصابت بعض النحاة بالدوار!!.. يقول ابن هشام في المغني:

((أنكر السيرافي وابن جني الخفْض على الجوار، وتأوّلا قولهم خربٍ بالجر على أنه صفة لضب.
ثم قال السيرافي: الأصل خربٍ الجُحرُ منه، بتنوين خرب ورفع الجحر، ثم حذف الضمير للعلم به، وحُوّل الإسناد الى ضمير الضب، وخفض الجحر كما تقول مررتُ برجلٍ حسنِ الوجهِ بالإضافة، والأصل حسنٍ الوجهُ منه، ثم أتى بضمير الجحر مكانه لتقدم ذكره فاستتر)) ا هـ.

ليت السيرافي وابن جني لم ينكرا الخفض على الجوار؛ لأنهما "أرادا أن يكحلاها، فأعمياها"!..
يتم العبث بهذا الأسلوب الفج من أجل تصحيح موضع الحركة.. المعنى بأسره أسير عند "فاشية الحركة"، التي قالها أشخاص بسطاء على سليقتهم، وربما قالوها، دون أن يعيروا لها أي أهمية.. وأنا متأكد أنهم لو التقوا بالسيرافي وابن جني ومن سار على نهجهم، لرفعوا عليهم في محاكم لاهاي؛ بسبب عبثهم بما قالوه!.
هل اللغة العربية مائعة وسائبة بهذا الشكل الذي يقوله السيرافي وابن جني وغيرهم من "فلاسفة النحو"؟!.

إن كثيراً ممّا يذكره "فلاسفةُ النحاة" من "إعراب اللف والدوران"، هو لا يعدو سوى لغة مفترضة لا وجود لها، إلا في مخيلتهم.

تقسيم الأفعال

قسم النحاة الأفعال إلى ثلاثة أقسام: (ماض.. مضارع.. أمر). وهذا هو المشهور والمعتمد عليه. وبعض النحاة من الكوفيين قسموا الفعل، هكذا (ماض.. مضارع.. دائم). والدائم هو اسم الفاعل عند البصريين، نحو: (كاتب.. ساخط.. جاعل.. عابد.. باسط...). لكنهم أسقطوا فعل الأمر باعتباره مقتطع من المضارع المجزوم. فإن الأصل (افعل) عندهم (لتَفعلْ)، ثم حُذفت لام الأمر؛ لكثرة الاستعمال، فهو معرب مجزوم بلام محذوفة للتخفيف.

وهذا بلا أدنى شك تكلف وتعسف واضح لا داع له!!.. فعل الأمر، كالماضي والمضارع مستقل، وليس تابعاً لفعل آخر.

ومن الملفت أن الكوفيين يسمون اسم الفاعل "فعلاً" مع أنه يقبل علامات الاسم من تنوين وإضافة... نحو: (جَاعِلٌ.. كَاتِبٌ...).. والبصريون يسمونه "اسماً" مع أنه يتطلب فاعلاً ومفعولاً، وهي علامة من علامات الأفعال.

وقد ورد ذلك في القرآن الكريم في كثير من الآيات الكريمة: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ . . . ﴾ [مريم/46].. ﴿ . . . وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ . . . ﴾ [الكهف/18].

فـ "أنتَ" فاعل لـ"راغب".. و "ذراعيه" مفعول لـ"باسط".. كل منهم نظر إلى جهة معينة، وترك الأخرى.. مع أن اسم الفاعل يجمع بعض علامات الأفعال والأسماء معاً، فهو يقبل التنوين والإضافة من جهة، ومن جهة أخرى يأخذ فعلاً أو مفعولاً.

وعلى حسب تعريف النحاة، يكون اسم الفاعل أقرب إلى الفعل بكثير منه إلى الاسم، من حيث المعنى. وأقرب إلى الاسم من حيث اللفظ.

والحقيقة يجب أن نضبع تعريفاً حديّاً للفعل؛ لتمييزه عمّا سواه، وهو أن نقول: إن الفعل ما دل على زمن.

الدلالة الوقتية للأفعال

إن الأفعال بتقسيمها "الثلاثي"[19] لا تحدد الزمن تحديداً دقياً، بل هي تدل على زمن مطلق ـ ربما ـ اطلاقاً مرسلاً.

فمثلاً الفعل الماضي لا يحدد زمناً محدداً بذاته، بل يتركه مرسلاً . . ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى . . . ﴾ [القصص/ 20]. فلم يتم تحديد مجيء هذا الرجل، هل كان صباحاً أم مساء... [20]إلخ.

ولو قلت: (جاءَ محمدٌ).. فيمكن أن يكون مجيء محمد قبل دقيقة، ويمكن أن يكون قبل ساعة، أو يوم أو أسبوع أو شهر أو سنة أو عقد أو قرن... والتحديد يأتي إما من الخارج، خارج الكلام، أو بإضافة ضميمة تقييدية، نحو (جاء محمد قبل دقيقة) أو (جاء محمد قبل شهر)... إلخ. ﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف/ 16].

ونفس الشيء ينطبق على فعل الأمر، فأنتَ تقول: (ازرع أرضك).. (احصد زرعك)... فالفعل غير دال على زمن محدد.. ﴿وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ . . . ﴾ [القصص/ 87 ـ 88].

نعم يمكن أن نعرف ذلك من الخارج.. إذا كانت الأرض غير قابلة للزراعة في زمن التكلم لأمر ما، أو كان الزرع غير ناضج. وإذا أردنا تحديد الوقت بدقة لا بد أن نضيف ضميمة، نحو: (ازرع أرضك الآن.. أو بعد يوم، أو شهر...).

الفعل المضارع يتحول إلى أمر بواسطة (اللام) أو (لا)... نحو: (لا تكتبْ)، و (لْيكتبْ)... فاللام، و (لا) أبطلتا عمل الفعل الأصلي، وحولتاه و "حورتاه" من فعل مضارع إلى فعلِ أمر، من حيث الدلالة الزمنية!!. و يتحول المضارع إلى ماضٍ، نحو: (محمدٌ يصبح رئيساً).. ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا

---

[19] فعل الأمر لا يفرق عن المضارع من حيثُ الزمن؛ لأن زمنه حاضر، وتنفيذ حدثه مستقبلي. وبهذا يكون داخل ضمن المضارع أو مشارك له في شطر من شطرَي زمنيه؛ لأن زمن المضارع حاضر ومستقبل!!. وبعض المعاصرين، مثل المخزومي لا يقرُّه فعلاً.. وبهذا لا يكون له زمن أبداً.

[20] طبعاً ولا نعلم كم سنة مرت على مجيء ذلك الرجل الصالح!.

أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ. . . ﴾ [الأنعام/145]. يعني: إلا إذا كان ميتة...

وهذا ينطبق على اللهجة العامية أيضاً.. يقول الشاعر "نمر بن عدوان" في قصيدة له:

((يِگُولون: اصْبُرْ، وَ الصَّبْرْ لَكْ زَيْنْ وَ الصَّبْرْ مَرْمَرْنِيْ وْ رِيجِيْ عَگَدْهَا))[21]

فهو يتحدث عن ماضٍ، نصحه فيه الأصدقاء بالصبر؛ لأنه كان في حزن شديد؛ بسبب وفاة زوجته (وضحا).

ويمكن أن يتحول الفعل الماضي إلى فعل مضارع من حيث الدلالة الزمنية وليس الصيغة: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا. . . ﴾ [يس/ 52]. وهذه من الأمور البلاغية؛ لأن البعث والنشور، سيقع حتماً؛ لذلك عبّر عنه القرآنُ الكريم، وكأنه وقع وانتهى وأصبح من الماضي!!.

يتبين ممّا مضى أن الفعل له دلالتان: **1** ـ دلالة زمنية حقيقية وضعية. **2** ـ دلالة زمنية مجازية استعمالية.

فالدلالة الحقيقية، كدلالة فعل الماضي على الزمن الماضي، وكما تعلم أن الفعل الماضي يدل على نسبة خبرية قد مضت وانتهى وقتها وحدثها.

ودلالة الأمر على الزمن ما بعد الطلب. وكما تعلم أن نسبة فعل الأمر نسبة إنشائية، لا تتحقق، إلا بعد الطلب. لكنه يستخدم بالمعنى المجازي في النسبة الخبرية الماضية، كما أن الماضي يستخدم في النسبة الإنشائية مجازاً، وكذا المضارع.

ودلالة الفعل المضارع الحقيقية، على الزمن المستقبلي، ومجازاً على النسبة الماضية.

وبهذا تكون دلالة الأفعال الزمنية مشتركة؛ بسبب الاستعمال المجازي. وهذا النظام له حلاوة بلاغية، لكن له مرارة دلالية!!.

---

[21] هذه الرواية العراقية.. وعند السعوديين: ((يا گايل الصبر صبرك عدا وين والصبر مرمرني وريگي عقدها)). أو ((يذكر لي أن الصبر گوله يلهين والصبر مرمرني وريگي عگدها)).
واو العطف في اللهجة العاميّة تكون ساكنة، إلا أن تلتقي بساكن، فتكون مفتوحة.. عگدها: يعني عقدها. والعقد أصله للحبل أو الخيط.. (ريجي) يعني: (ريقي).. في العراق لا يؤنثون (الريق). فمثلاً يقولون: (ريجي يابس)، وليس (يابسة).

وقد نظر علماء الأصول لفعل الأمر "المجرّد" من حيث دلالته الطلبية، هل هي وجوبية أم استحبابية. فبعضم قال للوجوب. [من حيث الوضع] وبعضهم قال للأعم منه.. وقيل مشترك بينهما اشتراكاً لفظياً.

ويبدو أن فعل الأمر دال على الوجوب "مجرداً"، لكن بالمعنى الوضعي والحقيقي الأصيل، وليس بالمعنى الاستعمالي المجازي البديل، لكن هذا يبقى مجرد استدلال بمعنى أصيل قد أكل وشرب عليه الدهر، حتى تساوى معه المعنى البديل.

وهو أشبه بشخص يستدل على إواني قد صممتها شركة ما، لخزن زيت المحركات قبل (1000) عام، مع أنها منذ (950) عاماً أصبحت تُستعمل في خزن زيت الطبخ من قبل الشركة نفسها!!.

الدلالات الثبوتية للجمل الاسمية

اللغة العربية لا تحتاج إلى فعل مساعد في صيغة الخبر أو الاستفهام، كما في بعض اللغات، مثل الإنكليزية.

وهذه الجمل قد تكون مطابقة للواقع من حيث ثبوت ودوام نسبة الخبر للمبتدأ، أو أن تكون النسبة الخبرية متغيرة. فمثلاً، قولنا: (محمدٌ عربيٌّ). فصفة العروبة ثابتة دائماً لا تتغير أبداً، حتى بعد الممات. أما قولنا: (محمدٌ شابٌّ). فهذه الصفة تتغير، لكن بعد زمن طويل. أما قولنا: (محمدٌ جالسٌ). فهذه تتغير في ثوان أو دقائق.

وهذا التغيير يفهم من الخارج، وليس من الجملة، إلا أن يضاف لها قيد..

التقسيم الثلاثي

إن التقسيم الثلاثي لا ينسجم مع عمل النحاة انسجاماً تاماً؛ لأنهم أدخلوا النحو في دائرة الفلسفة القديمة.. وبما أنهم أدخلوا النحو في الفلسفة القديمة، فقد حصل تنافر بين التقسيم الثلاثي العرفي، والتقعيد الفلسفي.

حينما نقرأ شرح (ابن عقيل) نعرف قوة تأثير العامل على النحاة، بحيث جعلهم لا يفكرون، إلا به، وأصبح هو مدار الفهم.

((والعامل في الخبر لفظي، وهو المبتدأ، وهذا هو مذهب سيبويه (رحمه الله).. وذهب قوم إلى أن العامل في المبتدأ والخبر الابتداء، فالعامل فيهما معنوي.. وقيل: المبتدأ مرفوع بالابتداء، والخبر مرفوع بالابتداء والمبتدإ.. وقيل: ترافعا، ومعناه أن الخبر رفع المبتدأ، وأن المبتدأ رفع الخبر. وأعدل هذه المذاهب مذهب سيبويه [وهو الأول]، وهذا الخلاف [ممّا] لا طائل فيه)) ا هـ.

لا نجانب الصواب إذا قلنا: إن علم النحو بُني على دعامتينِ: الشعر العربي الجاهلي، والمنطق الأرسطي اليوناني.. ولا يعني هذا أن بعض النحاة لم يعبثوا به لغرضٍ ما!. كما أنهم لم يفهموا دلالة الحركات بشكل صحيح، فلذا عبثوا بالمعاني. فالحركات ليس دائماً دلالية، بل قد تكون وصلية.

حل الإشكال.

إذا أردنا حل هذا الإشكال، فلابد أن نترك الفلسفة، وننهج نهجاً علمياً في التقسيم، نراعي فيه المشتركات بين الأفعال والأسماء والحروف[22].

1ـ الأسماء البحتة.. **2**ـ الأفعال البحتة.. **3**ـ الحروف البحتة.. هذه التقسيمات الأساسية، ثم ينتج منها تقسيمات مشتركة بينها.

1ـ الأسماء الفعلية[23].. **2**ـ الأفعال الحرفية.. **3**ـ الحروف الاسمية.

إن قضية العامل الفلسفية، وقوانين المنطق الأرسطي لا يمكن أن تحل لنا الإشكال، بل تضعنا في متاهة لا نخرج منها أبداً.

المنطق يصلح للقوانين الرياضية، وربما بعض الكونية، أو العلمية، لكنه لا يمكن أن يصلح للغة العربية أو أي لغة من اللغات الأخرى. فالمتكلم حينما يقو: (رأيتُ محمداً)، هو لم يقصد أن ينصب (محمد) بسبب عامل معنوي أو لفظي، بل نصبه على سليقته من أجل أن يميزه، ولا يضيره أن يسكنه أو يقلب الفتحة ضمة أو العكس. لقد تعامل النحاة مع النحو من منطلق

---

[22] هذا التقسيم ينسجم مع قوعد النحاة، إلا أنهم لم يفعلوه.. ولا يعني بالضرورة أننا مقتنعون به، أو بتقسيم النحاة الثلاثي.

[23] نقصد بـ(الأسماء الفعلية)، هي المشتركة في الفعلية والاسمية.

العلة والمعلول، وقاسوها على الظواهر الطبيعية، فمثلاً لو رأى شخص ما دخاناً لربط بينه وبين النار، من منطلق أن علة الدخان هي الحرارة الصادرة عن النار، وإذا رأى أثراً، ربط بينه وبين المؤثر من نفس المنطلق... وأنت حينما تقرأ ما كتبه النحاة تتعجب من طريقة تفكيرهم وتعليلهم، فمثلاً، هم يتساءلون: ما الذي رفع المبتدأ؟!.. ثم يبدؤون بوضع الفرضيات والنظريات، هل عامل معنوي؟.. أم لفظي؟.. وكأن هناك علة لا تنفك بين المبتدأ والرفع، أو المفعول به والنصب، أو المضاف والجر!!.. تعاملوا مع الكلام على أنه ظاهرة كونية وأن المتكلمين به مجبولون عليه.. ولم يتعاملوا معه على أنه ظاهرة اجتماعية قابلة للتغيير و"التحوير".. وهذا خطأ فادح، يجب أن لا يقع فيه النحاة الأفاضل.

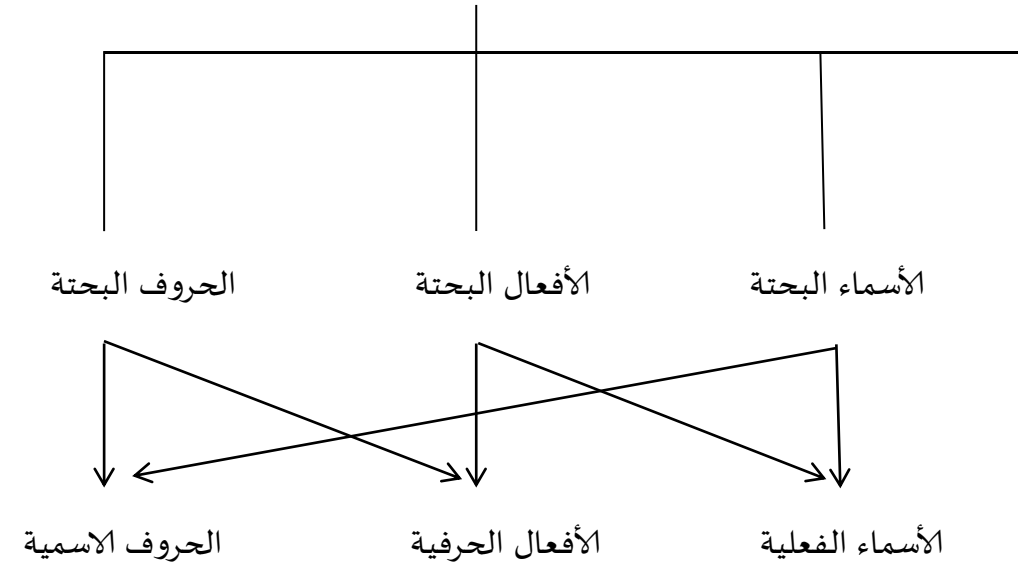

الأسماء البحتة: هي ما دلت على ذات، كـ(مُحمدٍ.. حَجَرٍ.. بَيتٍ.. جَبلٍ...)[24]. أو معنى، كـ(حبٍّ.. جُبنٍ.. جُوعٍ.. خَوفٍ...). أو اسم الزمن، كـ(يومٍ.. ليلةٍ.. سبتٍ.. شهرٍ...). المهم أن يكون الملحوظ هو الاسم، بغض النظر عن المسمى.. كان مادياً أو معنوياً، أو طاقة... إلخ.

[24] ولا يهم أن يكون مرئياً، أو غير مرئي.. المهم أن يكون محسوساً بإحدى الحواس الستة.

الأفعال البحتة: هي ما دلت على زمن ما، دلالة واضحة صريحة. مثل: (أكلَ.. يأكلُ.. كلْ.. جاء.. مشى.. رحلَ.. كانَ...). سواء دلت على حدث في ذاتها أو خارج عنها. المهم أن تكون فعليتها صريحة وواضحة، لا تحتاج لمجهر إلكتروني؛ كي نرى فعليتها المختبئة!!.

لا يمكن أن نسمي أي كلمة لا تحمل زمناً "فعلاً"؛ لأن العلامة الفارقة للفعل، هي الزمن.. وقد اعتمد النحاة على أن كلمة (ليس) فعلاً، مع أنها لا تدل على أي زمن، ولا حتى حدث!.. إن سبب إعطائهم لها رتبة الفعل، هو قبولها تاء ضمير المتكلم أو المخاطب، أو واو الجماعة، أو تاء التأنيث.. وكل هذه العلامات لا تعطيها رتبة الفعل، بل ربما تجعلها مشتركة بين الفعل والحرف؛ لأن معناها، هو النفي، كما هي حال (لا)، بل الفعل يحتاج إلى ما ينفيه، فأنت ـ مثلاً ـ (أكلَ.. لم يأكل).. (أكلتْ.. لم تأكلْ)... إلخ.. أما ليس، فهي أداة نفي بنفسها.. وهذا غريب!!، وهو ما يجعلنا نشك أكثر ممّا قاله النحاة في فعليتها.. إن معنى (ليس) هو معنى حرفي، حتى وإن قبلت بعض علامات الأفعال لفظياً. والمعنى مقدم على اللفظ؛ لأنه الأصل.. في الحقيقة، إن المصدر واسم الفاعل أقرب للفعل من "ليس"... وفقاً لتعريف النحاة، الذي جعل الاسم مكون من "زمن وحدث".. وهنا المصدر أخذ النصف!.

وحتى لا ننظر للأمور من زاوية واحدة، علينا أن نصنف ليس ـ مثلاً ـ (فعلاً حرفياً)، أو (حرفاً فعلياً).. وهذا هو التصنيف الجامع المانع.

الحروف الصريحة: هي التي تكون حرفيتها ظاهرة وبينة: كـ(الباء.. الكاف.. الواو.. إلى.. من.. على.. إنْ.. هل.. لم...). سواء كانت هذه الحروف حروف جر، أو ربط أو استفهام، أو شرط... وسواء كانت مكونة من حرف أو أكثر... إلخ. وهي التي لا يكون لها معنى مفردة، ويظهر معناها في غيرها.

إنّ معنى الحروف، هو معنى (جُمْلِيّ)، وليس معنى (إفْرادياً)، أي أن معناها يظهر في الجملة، وليس حينما تكون منفردة.

وفي الحقيقة أن بعض الحروف، التي تتكون من حرفين فما فوق لها معنى، حتى وإن كانت منفردة، كما هي حال: (مِن، على، إلى...)، فحينما تقول: "مِن" يعرف السامع أنك تقصد مكان ما، أي أنك تريد المصدر، الذي أتيت منه أو أخذت منه... إلخ. وحينما تقول: (على) يعرف السامع أنك تقصد الاستعلاء، وحينما تقول (إلى) يعرف أنك تقصد الغاية.

الأسماء الفعلية: هي ما دلت على الحدث، وهو من صفات الأفعال، والرفع والنصب والجر، وهي من صفات الأسماء.: (أكلٌ.. شربٌ.. مشيٌ.. ركضٌ...). وهي المصادر، وهي مشتركة بين الأفعال والأسماء.. وأسماء الفاعلين، نحو: (كاتب.. باسط.. جاعل... إلخ).

وكذلك على (نعم) و(بئس). فهما يقبلان بعض العلامات الاسمية، والفعلية، فهما يقبلان النداء والجر، كما أنهما يقبلان تاء التأنيث. لكن حتى تاء التأنيث اقترنت مع بعض الحروف، مثل: (لات)، التي هي (لا) و (تْ). أي: تاء التأنيث، وكذا في (رُبَّتْ) وثُمّتْ[25]). وبهذا تكون تاء التأنيث لا تخص الأفعال، بل الحروف، لكن بندرة.

وقد أحس بذلك النحاة، إلا أنهم تركوا ذلك، لاعتبارات فلسفية: من أن الكلمة إما أن تكون اسماً أو فعلاً، ولا يمكن أن تكون اسماً وفعلاً في نفس الوقت.. وهذا تعليل لا قيمة له. فالعلماء حينما صنفوا الحيوانات إلى برية وبحرية، وجدوا بعضها يعيش في البر والبحر، فأطلقوا عليه اسم (برمائي). فلو أتينا بفريق يرتدي القمصان والسراويل البيضاء، وفريق آخر يرتدي القمصان والسراويل السوداء، فلا يوجد نقطة التقاء بين اللونين، فنصنف الفريق الأبيض على حدة، والأسود على حدة، لكن لو جاء فريق يرتدي قمصاناً بيضاء، وسراويل سوداء، فسوف نقول: إنه ينتمي للمجموعتين.

قالوا في تعريف اسم الفعل (كلمة تدل على معنى الفعل ولا تقبل علاماته).. ـ المصدر واسم الفاعل أيضاً يدلان على معنى الفعل ولا يقبلان علاماته ـ

وذكروا منها ((بُطان.. سرْعان.. وشكان.. شتان.. هيهات)).. ((قد.. قط.. زِه.. بخْ.. وا.. واها.. ويْ)).. ((إليك بلْهَ.. آمين.. أمامك.. دونك.. حيّ.. هيّا.. هيْتَ.. هلّمَ.. عندك.. لديك.. هاك.. مه.. مكانك.. صه)).

إذن معناها فعلي ولفظها اسمي.. وهذه الأسماء تندرج تحت عنوان (الأسماء الفعلية).. ((طبعاً بعد التسليم على أنها أسماءُ أفعال)).

وقد ترجم النحاة معانيها على شكل أفعال ماضية أو مضارعة أو أمْريَّة، فمثلاً: "شتان"، تعني بعُدَ، أي فعل ماض.. و "قد" تعني يكفي.. و"إليك" تعني تباعدْ... إلخ. ويمكن أن نترجم معاني بعضها إلى أسماء متصرفة. فتكون أسماء لفظاً ودلالةً. فيكون معنى (شتان) بعداً، بدل بعُدَ.. وقد ذكر بعضُ العلماء ذلك.. فمثلاً (دونك القلمَ). أعربها النحاة هكذا: "دونك" اسم فعل أمر... والفعل مستتر، تقديره: "أنت".. و "القلمَ" مفعول به منصوب...

وكل هذا التحوير بسبب الفتحة التي على آخر كلمة "القلم"!، فلو كانت (دونكَ القلمُ)، لأعربوا الجملة: مبتدأ وخبر.. طبعاً "دونك" ظرف مكان متعلق بخبر محذوف، والقلم مبتدأ مؤخر.

---

[25] ولا يهم ذلك إن وردت مفتوحة عرضاً، أو ساكنة أصلاً.. المهم وردتْ.

وهكذا بسبب حركة، تم التلاعب في الجملة، وقلبها رأساً على عقب، وتحولت من مبتدأ وخبر إلى فعل وفاعل ومفعول!.

في شرح الأشموني على ألفية ابن مالك: ((وذهب أبو إسحاق إلى أنها اسم بمعنى البعد)).

وكما تلاحظ أن بعض هذه التي يطلقون عليها (أسماء أفعال) عبارة عن جار ومجرور، أو ظرف. وهي مستعملة في غير معناها الأصلي، ولم تكن أبداً ممّا يطلقون عليها "أسماء الأفعال"..

قد عرفنا أنهم أطلقوا على هذه الكلمات آنفة الذكر (أسماء أفعال)، وبالمحصلة هي أسماء على حسب تسميتهم، لكنهم جعلوها فاعلة، أي تأخذ فاعلاً.. ولا ندري كيف أخذت فعلاً، وهي لم تحمل زمناً ولا حدثاً[26]؟. اللهم إلا أن يكون الفاعل فاعلاً للفعل المترجم لا الملفوظ. وهذا فيه غرابة!. (هيهاتَ الأملُ إذا لم يُسعدْهُ العملُ).

فَهَيْهَاتَ، هَيْهَاتَ، الْعَقِيقُ وَمَنْ بِهِ وهَيْهَاتَ خِلٌّ بالْعَقيقِ نُواصِلُهْ

في شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك:

(("هيهات زيد" مثلاً فللعلماء في إعرابه ثلاثة آراء: **الأول** وهو مذهب الأخفش، وهو الصحيح الذي رجحه جمهور علماء النحو أن هيهات اسم فعل ماض مبني على الفتح لا محل له من الإعراب، وزيد: فاعل مرفوع بالضمة. وهذا الرأي هو الذي يجري عليه قول الناظم إن سبب البناء في أسماء الافعال كونها نائبة عن الفعل غير متأثرة بعامل لا ملفوظ به ولا مقدر، **والثاني** - وهو رأي سيبويه - أن هيهات مبتدأ مبني على الفتح في محل رفع، فهو متأثر بعامل معنوي وهو الابتداء، وزيد: فاعل سد مسد الخبر، **والثالث** - وهو رأي المازني - أن هيهات مفعول مطلق)).

إن بعضاً ممّا يسمونه (أسماء أفعال) كـ(أفٍ) ما هي، إلا أصوات مادتها مكونة من حروف، وهي لا تفرق عن الأصوات التي تطلق لمناداة بعض الحيوانات أو حثها على الشرب أو البروك... إلخ.. وهي لا تختلف من حيثُ الدلالة عن الإشارة الحركية، فهي بذاتها لا يمكن تصنيفها كلاماً، ثم إعرابه، إلا إذا ترجمناها إلى أقرب مقرب لها، كما فعل النحاة.

لكن تواجهنا مشكلة؛ لأن هذا ينطبق على الإشارة الحركية، فمثلاً لو رفع شخص يده، فهل نستطيع أن نترجمها [أي الحركة] إلى (السلامُ عليكم). وحينها تكون مبتدأً وخبراً لفظاً، ويكون معناها إنشائياً؟.

---

[26] ينطبق هذا على بئس ونعم... إلخ.

وربما يقولون: إن الترجمة خاصة بالأصوات، ولا تشمل الحركات الوضعية، أو الطبعية[27]... لكن في عصرنا يستخدم البعضُ من السائقين مزمارَ (هورن) السيارة من أجل التحية والسلام على الناس، فيردون عليه: (وعليكم السلام)، مع أنه استخدم صوتاً غير مكون من حروف هجائية. فهل نستطيع ترجمة هذا الصوت إلى جملة (السلام عليكم)، ثم إعرابه؟.

وربما يقولون: نقصد صوت الإنسان حصراً.. نقول لو أُصطلح على صوت غير حرفي لتحية السلام، وأصبح يُرد عليه، بـ(عليكم السلام): هل يتم إعرابه أم لا؟!.

وقد ترك النحاةُ إعراب الحروف المقطعة، التي تتصدر السور في القرآن الكريم؛ لأنها مجرد أصوات هجائية، لا تصلح أن تكون مبتدأً أو خبراً... إلخ.

إن القول: إن (زيداً) هو فاعل لاسم الفعل (هيهاتَ) هو أمر خيالي بعيد عن الواقع؛ لأن (هيهات) لا تحمل زمناً ولا حدثاً، وكل ما فعله النحاة هو أنهم ترجموها أو حوروها إلى فعل، ثم جعلوا الاسم الذي بعدها فاعلاً!. ((فاعلٌ وهميٌّ لفعلٍ خالٍ منَ الزّمان والحدث!!)).

ثم نجد أن سيبويه يعرب "هيهات" مبتدأ مبني على الفتح في محل رفع، وزيد: فاعل سد مسد الخبر.. والمازني يعربها [هيهاتَ] مفعول مطلق.

كلّ هذا الدوران؛ بسبب غموض الكلمة، ورفع ما بعدها!.. ((لقد أرادوا أن يظهروا الغريقَ من النهر، فأوقعوه في البحر!!)).

إن قول النحاة فاعل سد مسد الخبر، كما أعربوا قوله تعالى:﴿أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [مريم/46].. فقالوا: إن كلمة (أنتَ) فاعل سد مسد الخبر؛ لأن (راغب) عندهم هو اسم فاعل. وهُم يصنفونه اسماً!!.. والمفروض أن يصنفوه مشتركاً بين الاسم والفعل، وفقاً لقولهم، فهو كـ(البرمائي) المنسوب للبريات والمائيات، وإلا فتصنيفهم على أنه اسم، ثم يجعلونه يطلب فاعلاً ـ هو خطأٌ منهجي قاتل!!.

ثم إنّ هذا التعريف يحمل مغالطة فجّة، فكيف يكون اسماً، ويُعرب مبتدأ، ثم يكون ما بعده فاعلاً؟!. والمغالطة الأخرى، كيف يكون فاعلاً، ويسد مسد الخبر؟!.. ما هذا التعريف المهلهل، البعيد عن المنهجية؟!.

---

[27] الأصوات الطبعية الغير حرفية، كالأنين والبكاء والضحك والصراخ... لا تحتاج إلى ترجمة؛ لأنها لغة عالمية. وهي عدد أصابع اليد، فلا يمكن أن تُكوّن لغةً عالمية.. كما لا يمكن تَكُون لغة عالمية مكونة من أصوات حرفية، يعرفها العالمُ، بدون تعلّم!!.

هذا التعريف يكون مقبولاً لو قالوا: "راغب" مشترك بين الاسم والفعل.. لكنهم صنفوه مع الأسماء، وتقسيمهم الثلاثي خير دليل على أنهم لا يعترفون بفعليته.. نعم في أسماء الأفعال كلامهم مشعر بذلك، لكنهم لم يصنفوها مشتركة. لكن أسماء الأفعال لا تشترك مع الأفعال في الزمن، بل ولا في غيره من العلامات ما عدا (هيهاتَ) شاركت الفعل في التاء التي قالوا عنها إنها تاء تأنيث فتحت للقاء ساكنين. وهو كلام غير مقنع!.

إنّ وضْعَ الحركات، التي في أواخر الكلمات معيار ودستور ودليل ثقة، قلب اللغة العربية رأساً على عقب، وجعلها تمشي على أم رأسها في كثير من الأوقات!.

الأفعال الحرفية: وهي الكلمات المشتركة بين الفعل والحرف، مثل: (ليس[28]). فمثلاً (ليس) تنطبق عليها الصفات الحرفية، فهي خالية من الزمان والحدث[29]، إلا أنها تقبل تاء الضمير، وتاء التأنيث.. وهذه العلامة لا تعطيها الحق أن تكون فعلاً، له كامل الصلاحيات!. كما أن خلوها من العلامات الأخرى لا يعطيها الحق أن تكون حرفاً خالصاً له كامل الصلاحيات.

وقالوا عن (خلا، عدا، حاشا) إنهما حرفا جر إن جرا، وفعلان إن نصبا أو إن دخلت عليهما (ما) المصدرية. (قام القوم خلا زيدٍ).. (قام القوم خلا زيدٍ).. (قام القوم ما خلا زيداً).

(قام القوم حاشا زيداً).. (قام القوم حاشا زيدٍ).

في الحقيقة هذا عبث لا فائدة منه، فـ(خلا) هي (خلا)، والحركات من جر ونصب ـ هنا ـ لا تغني ولا تسمن من جوع ولا تضيف للمعنى شيئاً، لكن النحاة افترضوا تغيراً في المعنى، معتمدين على الحركات، التي جعلوها قطباً ثابتاً يستدلون به!.

إن الحركات فرع عن المعنى، وليس هي المعنى ذاته؛ حتى نجعلها الآمر الناهي بلا منازع، حتى النحاة أنفسهم اعترفوا بأن العرب ـ أحياناً ـ تسكن أواخر الكلمات، ممّا يدل على أنهم يعتمدون على السياق، ومطابقته للواقع.

إن الكلام ليس أرقاماً رياضية صماء، بل له شعور واحساس في النفوس، ويفهمه السامع وفقاً لشعورك وإيحاءاتك وحركاتك.. فحينما تقول: (إني فقير)، يفهم السامع أنك تريد نقوداً، وليس قصدك إخبارك المجرد عن فقرك.

---

[28] شرح ابن عقيل: (... إلا ليس فذهب الجمهور إلى أنها فعل. وذهب الفارسي في أحد قوليه، وأبو بكر بن شقير في أحد قوليه إلى أنها حرف).

[29] الأسماء أيضاً خالية من الحدث، عدا المصدر... وكذا من الزمان.

وكذا اعتمد العرب على فهم المتلقي، فمثلاً يقولون: (محمد حاتم)، (محمد أسد)، ومعناه: (محمد كريم)، (محمد شجاع). جعلوا اسم العلم الجامد الخاص مكان الصفة المتصرفة المشتقة العامة.. لقد استبدلوا المعاني الحقيقية بمعانٍ مجازية، فهل هؤلاء يضيرهم أن يضعوا الضمة مكان الفتحة أو العكس؟!.

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل كانوا في نفس الكلام يغيرون النمط من الخطاب إلى الغياب، أو العكس، أو من المفرد إلى الجمع أو من الخطاب إلى الإنشاء...

وهذا ما ورد في القرآن الكريم في كثير من الآيات الكريمة:

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ . . .﴾ [يونس/22].

والأصل هو (حتى إذا كنتم في البحر جرين بكم).. وقد سمّى ذلك النمط النحاةُ واللغويون والبلاغيون (الالتفات). لقد تم الاعتماد على فهم السامع.. حتى في اللهجة العامية يستعمل هذا النمط، حتى أن بعضهم حينما يسلم على الرجال، يقول: (السلامُ عليهم)، بدل (السلامُ عليكم). ويقولون في اللهجة العامية العراقية: (علي ضربْ سالم، تعال يَسالم واضربْ علي).

ومعناه: أن علياً ضربَ سالماً، فرد سالمٌ بضربه مماثلة، سواء كانت مباشرة أو بعد حين.

والذي لا يعرف مدلول هذه الصيغة يتصور أن شخصاً ما يصيح، ويقول: ((عليٌّ ضربَ سالماً، تعالَ يا سالم ـ سالم غير الأول ـ واضربْ علياً)).. لأن الجملة تبدأ بخبر وتنتهي بإنشاء؛ لكن هذا الإنشاء مستعمل في الخبر.

وفي اللهجة العراقية الجنوبية، حينما يتكلم معك شخص عن شخص ما غائب، وهو غير راضٍ عنه، ويوجه له النقد، يقول: (يا مجرم أنتَ ليش ما يجي منّك غَير البلاوي)!!.. كلامه بصيغة خطاب لرجل غائب، ومن لا يعرف هذه يتصور أنه هو المخاطب بهذا الكلام!.

حينما يطرق شخص ما الباب، يقول صاحب البيت: (مِن هُو)[30]؟.. وليس (مَن أنتَ).. يتكلم معه، وكأنه غائب!.. إذا جاء ضيف، يخاطبه صاحب البيت: (حيّاه الله)، وليس (حيّاك الله)!.

وأحياناً يبدأ المتكلم بالضمير، دون ذكر الاسم.. ومن طريف ما يذكر أن شخصاً بدوياً كبير السن، كان يعمل في الكراء، وكانت بقربه امرأه تعمل أيضاً، وكانت نشطة، فقال بلهجته

[30] أي: مَنْ هُو.. اسم استفهام و ضمير غائب.. ولقد أصبحتا كلمة واحدة في العامية (مِنهو). وبعضهم يقول: (منو).

البدوية: ((مِنْ حَطُّهْ بِچ))!!، فقالت له بلهجتها الريفية: ((اتْريد اتْحطَّهْ بيّه يا چلب يا ابن الچلب))!!.. هو يقصد المرض، وهي فهمت معنىً آخر!!!.. وكادت أن تحصل مشكلة لولا أن البعض تدخل وفك النزاع، وراح الرجل يقسم، ويقول: والله إني أقصد الألم الذي في ظهري..

وممّا يستخدم في اللهجة العامية، وهو وضع الاسم الجامد الذاتي مكان الصفة المشتقة: (فلان عسل، أو فلان گمر).. يعني جميل.. (فلان صخرة، أو طابوگة)، يعني بخيل أو قاسي.. (فلان نعجة).. يعني جبان.. (فلان سْيانَة[31]).. يعني سريع الانفعال.. (فلان دِلّة[32]).. يعني لا يضر ولا ينفع... إلخ.. وهذا الأسلوب أصله في الفصحى.

إن التركيب في اللغة الفصحى[33] هو تركيب غير علمي ولا تسلسلي نوعاً ما، لكنه رائع من الناحية الذوقية، التي تتوسع من أجل رسم صور جميلة تعكس المشاعر البشرية.. إن اللغة العلمية ـ إن وجدت ـ لغة جافة تعكس الواقع، ولا تعكس المشاعر؛ لأن المشاعر أكبر من الواقع بكثير.. فمثلاً حينما تقول لشخص بلغة التحدي: والله لو تقطع رأسي مليون مرة لن أتنازل عن حقي!.. فهذا الكلام يعكس المشاعر، وليس الواقع؛ لأن البشر لا يُقطع رأسه، إلا مرة واحدة، فيفارق الحياة في علم الواقع.

اِقرأ، أو اسمع الشعر العربي، وسوف، تجده مليئاً بانْعكاس المشاعر، وخالياً ـ تقريباً ـ من انْعكاس الواقع.. وأي شعر عربي ـ واقعي ـ يعكس الواقع تماماً، فهو لا يحظى بالرغبة التي يحظى بها الخيالي الصوري المشاعري؛ لأنه عبارة عن خبرٍ مقفىً وموزون.

والعامية لا تختلف عن الفصحى في هذا المجال، وشعراؤها لا يختلفون عن شعراء الفصحى..

أكلت الطبگ والطابگ وشربت الماي والطاسة![34]

مع أن هذا الكلام مخالف للواقع، إلا أن النفوس تطرب إليه؛ لأنه يعبر عن المشاعر، فالمتكلم يريد أن يعطي صورة خيالية لهذا الشخص كثير الأكل، وإذا عكس الواقع، كما هو، فإنّ هذا الانعكاس يكون بارداً.. وكما تعلم: العربُ يحبون المبالغات في كل شيء: في المدح.. في الذم.. في الكرم.. في الحقد... إلخ.

---

[31] السيانة: الطين السائل أو الطمي.

[32] الدلة، هي نوع من الحمام غير الأليف.

[33] قيدنا الفصحى؛ لأن موضوعنا يخصها.

[34] الطابگ نوع من الخبز الغليظ يُعمل من طحين الرز. والطبگ، يعني: الطبق الذي يوضع عليه الخبز.

وحتى في القرآن الكريم ورد كلام المبالغة، ولكن المبالغة المنطقية ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ . . .﴾ [التوبة/80]

فالقرآن يريد أن يقول لن يغفر الله لهم أبداً، وبإمكانه الاكتفاء بالقول: (إن تستغفر لهم، فلن يغفر الله لهم)، لكنها حلاوة المبالغة!.

الحروف الاسمية: وهي الكلمات التي تشترك بين الحرف والاسم، مثل: (منذ.. مذ[35])..

في كتاب حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك لمحمد بن علي الصبان:

((قال الشاطبي قد يحتملان الاسمية والحرفية، كما في ما "رأيته مذ أو منذ أن الله خلقه" بفتح الهمزة أما إن كسرت، فالاسمية متعينة)).

وقالوا عن (خلا، عدا، حاشا) إنهما حرفا جر إن جُرّا، وفعلان إن نُصبا أو سبقتهما (ما) المصدرية: (قام القوم خلا زيدٍ).. (قام القوم خلا زيدٍ).. (قام القوم ما خلا زيداً).. (قام القوم حاشا زيدٍ).. (قام القوم حاشا زيداً).

كما أن الأسماء تختلف عن بعضها، والأفعال تختلف عن بعضها في معناها، ولو قليلاً، فمثلاً: (محمد جميل) تختلف عن (محمدٌ نائمٌ)، و(محمد عامل) تختلف عن الجملتين السابقتين، فالأولى خبرية وصفية، والثانية خبرية حالية، والثالثة خبرية فعلية.

أما مع الفعل، فمثلاً: (نامَ محمدٌ) تختلف عن (عملَ محمدٌ)؛ لأن الثانية فيها حدث حقيقي، بخلاف الأولى. ثم إن الجملة الوصفية لا إرادة لمحمد في حدوثها، فهي وصف لجماله، بخلاف الجملتين الأخريين. ثم إن النوم راحة وسكون، والعمل تعب وحركة.

حينما تسمع جملة (محمدٌ نائمٌ) تشعر تلقائياً أن (نائم) هي حال من محمد، لكن نحنُ لحظنا فيها الخبرية، وغلّبناها على الحال. لكن النحاة يشترطون أن تكون الحال منصوبة، نحو: (جاءَ محمدٌ مسرعاً). فالمفردة (مسرعاً) حال من محمد.. أو (جاءَ محمدٌ يركضُ). فالجملة (يركض) في محل نصب حال من محمد. لكن لو كانت الجملة: (جاءَ محمدٌ مسرعٌ)، يعربون (مسرعٌ) خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هو). مع أننا نشعر بأن (مسرعٌ) حال وفقاً للمعنى. لكن النحاة غلبوا دلالة الحركة على دلالة المعنى.

---

[35] طبعاً مذ، هي اختصار لـ(منذ).

وأنت تعرف أن (مسرعٌ) أو (مسرعاً) بالرفع أو النصب، هي صفة مؤقتة، وهو ما ينطبق على الحال. أما الاختلاف، فلفظي لا أكثر؛ لأن المعنى والموقع[36] قد اتحدا.. خذ نموذجاً من الإعراب، الذي لا يغير معنى.

﴿ . . . كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ . . . ﴾ [الكهف/5].

((قوله ﴿كبرتْ كلمةً ﴾كلمة نصب على التفسير، وفي كبرت ضمير فاعل تقديره: كبرت مقالتهم اتخذ الله ولداً. ومن رفع كلمة جعل كبرت بمعنى عظمت، ولم يضمر فيه شيئاً، فارتفعت الكلمة بفعلها وتخرج نعت للكلمة))[37].

قراءة تجعل (كلمةٌ) فاعل؛ لأنها مرفوعة، وقراءة تجعل (كلمةً)، فتجعل الفاعل محذوف، وكلمة (تمييز). كما تلاحظ الإعراب فيه تعسف واضح، مع أن هذا التفسير هو الأسهل، ويوجد رأي يقول بخلافه!!. لكن من حيث المعنى فإن المعنى لا يتغير سواء كان الفاعل كلمتهم أو مقالتهم..

ومع طريقة من طرق النحاة.

(رأيتُ زيداً العادلُ). قالوا: رأيت فعل... والفاعل ضمير المتكلم "التاء"... و "زيداً" مفعول به... والعادل خبر لمبتدأ محذوف!.

مع أن المعنى يوحي بكل وضوح أن العادل ـ صفة لزيد، وليس خبراً لمبتدأ مقدر، تقديره (هو)!!.. والسبب قولهم ذلك، هي الضمة التي على آخر كلمة العادل؛ لأن "زيداً" منصوب.. وهكذا ماتت دلالة المعنى، وتم صناعة دلالة لفظية افتراضية!.. حينما يتم تأويل الكلام بهذه الطريقة: (رأيت زيداً هو العادلُ)، يكون غير سلسٍ، بخلاف (رأيت زيداً العادلُ) حتى وإن اختلفت الصفة مع الموصوف لفظاً، لكنها متفقة معنى.

ومن أغرب الغرائب، هو إعراب ابن هشام لهذا البيت الآتي، فإنه إعراب غريب وعجيب!!.. يقول ابن هشام:

((إنّ هندُ المليحةُ الحسناءَ وَأْيَ مَنْ أضْمَرَتْ لخِلٍ وَفاءَ

---

[36] لان (مسرعاً) و (مسرعٌ) كلاهما وقع بعد الاسم (محمد).

[37] مشكل إعراب القرآن للقيسي

فإنه يقال: كيف رفع اسم إنّ وصفته الأولى؟ والجواب: أن الهمزة فعل أمر، والنون للتوكيد، والأصلُ إينَّ بهمزة مكسورة، وياء ساكنة للمخاطبة، ونون مشددة للتوكيد، ثم حذفت الياء لالتقائها ساكنة مع النون المدغمة كما في قوله:

لَتَقْرَعِنَّ عَلَيَّ السّنَّ مِنْ نَدَمٍ   إذا تذَكّرْتِ يوماً بعضَ أخْلاقي

وهندُ: منادى مثل ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ . والمليحةُ: نعتٌ لها على اللفظ...

والحسناءَ: إما نعت لها على الموضع كقول مادح عمر بن عبد العزيز (رض) عنه:

يعـودُ الفَضلُ منكَ على قُرَيْشٍ   وتَفرُجُ عنهمُ الكُرَبَ الشِّدادا

فَما كعْبُ بنُ مامَةَ وابن سُعْدى   بأجْوَدَ منْكَ يا عُمَرُ الجَوادا

وإما بتقدير أمدح، وإما نعت لمفعول به محذوف، أي: "عِدِي يا هند الخلَّةَ الحسناء". وعلى الوجهين الأولَيْنِ، فيكون إنما أمرَها بإيقاع الوعد الوفي، من غير أن يعين لها الموعود. وقوله "وَأْيَ" مصدرٌ نوعيٌّ منصوب بفعل الأمر، والأصل: وَأياً مثلَ وَأيِ مَنْ، ومثله ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ﴾ . وقوله أضمرتْ بتاء التأنيث محمول على معنى مَنْ، مثل: مَنْ كانت أمَّك؟))[38].

ما هذا الإعراب الغريب؟.. لقد عبث بالمعنى[39] بطريقة جعلته مجموعة من الرموز والطلاسم، وأصبح الكلام عبارة عن سلطة غير متجانسة!..

وإذا وُفقنا لتفكيك شفرة هذا البيت!، يكون معناه: ((انتبهي[40] يا هندُ المليحةُ، [أمدح] الحسناءَ[41]، وعدنَ وَعْد المرأة التي أضمرت الوفاء لخلها)).

يذكر ابن هشام في كتابه المغني.. يقول:

((كتب الرشيد ليلة إلى القاضي أبي يوسف يسأله عن قول القائل:

فإنْ تَرْفقي يا هند فالرفق أيمن   وإن تخرُقي يا هند فالخُرق أشأم

---

(38) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام.

(39) ربما صاحب البيت هو من عبث بالمعنى لأجل الزخرفة الفضية.

(40) على فرض أن معنى هذا الفعل الغريب المكون من (همزة!) ـ الانتباه!.

(41) أو تكون (الحسناء) صفة ثانية نعتت على المحل، بخلاف (المليحة) التي جاء نعتها على اللفظ!.. قل للمليحة بالخمار الأسود!.. ولا أدري لماذا هذا التعقيد العبثي؟!.

فـأنتِ طلاقٌ و الطلاقُ عزيمةٌ ثلاث، و مَن يخرُقْ أعقُّ و أظلمُ

فقال: ماذا يلزمه إذا رفع الثلاث وإذا نصبها؟. قال أبو يوسف: فقلت: هذه مسألة نحوية فقهية، ولا آمَن الخطأ إن قلت فيها برأيي، فأتيت الكسائي وهو في فراشه، فسألته، فقال: إن رفعَ ثلاثاً طلقت واحدة؛ لأنه قال أنت طلاق، ثم أخبر أن الطلاق التام ثلاث، وإن نصبها طلقت ثلاثاً؛ لأن معناه أنت طالق ثلاثاً، وما بينهما جملة معترضة، فكتبت بذلك إلى الرشيد، فأرسل إليَّ بجوائز، فوجهت بها إلى الكسائي...))[42].

ما قاله الكسائي، هو استنتاج، وإلا أظن العرب كان كلامهم بهذه الدقة الصارمة، فلو كلامهم بهذه الدقة، لما قلبوه رأساً على عقب!.. ثم إن الكسائي لابد أن يظهر حذاقته ما دام النحو أصبح فيه جوائز، فما فيه جوائز جائز!.. طبعاً لا نريد أن نقلل من شأن الكسائي، فهو علم من الأعلام بلا شك. لكن هذه العلمية أصبحت مهنة، وتتطلب رضا أصحاب الأموال، وما دام الأمر كذلك، فلابد أن يظهر حذاقته، ويصنع التأويلات والتخريجات من العدم!.

ويذكر ابن هشام أيضاً.. يقول:

((وذكر لي عن رجل كبير من الفقهاء ممن يقرأ علم العربية أنه استشكل قول الشريف المرتضى:

أتبيتُ ريّانَ الجفونِ منَ الكرى وأبيتَ منْكَ بليلةِ الملْسوعِ؟

وقال: كيف ضمّ التاء من تَبيتُ وهي للمخاطب لا للمتكلم؟ وفتحها من أبيتَ وهو للمتكلم لا للمخاطب؟ فبينت للحاكي أن الفعلين مضارعان، وأن التاء فيهما لام الكلمة، وأن الخطاب في الأول مستفاد من تاء المضارعة، والتكلم في الثاني مستفاد من الهمزة، والأول مرفوع لحلوله محل الاسم، والثاني منصوب بأنْ مضمرة بعد واو المصاحبة...))[43].

تصور أن فقيهاً كبيراً لا يعرف طلاسم النحو، فهل نريد من الطلبة الصغار أن يفهموها؟..

وذكر ابن هشام طريفة تبين لنا كيف أن عامة الناس لا يعرفون النحو ، ولا لوم عليهم إذا كان الفقهاء لا يعرفون الكثير منه.. يقول ابن هشام:

---

[42] مغني اللبيب لابن هشام/ ص 75.

[43] المصدر السابق/ ج 2 ـ ص 325

((وحكى العسكري في كتاب التصحيف أنه قيل لبعضهم: ما فعلَ أبوك بحماره؟. فقال: باعِهِ؟. فقيل له: لم قلت: باعِهِ؟ قال: فلم قلت أنت بحمارِهِ؟. فقال: أنا جررته بالباء، فقال: فلم تجرُّ باؤك وبائي لا تجر؟.. ومثله من القياس الفاسد ما حكاه أبو بكر التاريخي في كتاب أخبار النحويين: أن رجلاً قال لسمّاكٍ بالبصرة: بكم هذه السّمكة؟. فقال: بدرهمان، فضحك الرجل، فقال السماك: أنت أحمق، سمعت سيبويه يقول: ثمنها درهمان))[44].

دور اللغة.

إن دور اللغة، هو دور وظيفي أداتي بصورة جميلة تسر المتذوقين، ولابد أن تتسم بالبساطة والسلاسة.

نحنُ نعرف أن الوحدة الأساسية لتركيب الجملة هي الكلمات، سواء تكونت من كلمتين أو أكثر، لكن المشكلة ليس في الكلمات، أي ليس في الوحدات الأساسية ذاتها، بل في التركيب؛ لأنه يحصل فيه الحذف والتقديم والتأخير وتغيير للمعنى...

وقد نظر علماء الأصول إلى الكلام من حيثُ دلالته التركيبية إلى معاني "حرفية واسمية".

يقول السيد محمد باقر الصدر (رحمه الله) في كتابه "دروس تمهيدية في علم الأصول":

((تنقسم كلمات اللغة كما قرأتم في النحو إلى [اسم وفعل وحرف]، وقولنا: "**تهتدي الإنسانية في الإسلام**" يشتمل على الأقسام الثلاثة، فـ "**الانسانية**" و "**الإسلام**" من الأسماء، و "**في**" حرف من حورف الجر، و "تهتدي" فعل من أفعال المضارعة. وإذا درسنا مفردات هذه الجملة بشيء من الدقة نجد أن كلمة "الإنسانية" لو فصلت عن سائر الكلمات وبقيت بمفردها، لظلت تحتفظ بمدلولها ومعناها الخاص، وكذلك كلمة "الإسلام" توحي بنفس المعنى الخاص بها سواء كانت جزءاً من الجملة أو منفصلة عنها. وأما كلمة "في" فهي تفقد معناها إذا جردت عن الجملة ولوحظت بمفردها، إذ لا توجد في ذهننا عندئذ أي "تهتدي" تدل على نفس المعنى الذي تدل عليه كلمة الاهتداء، ولكن الفعل مع هذا لا يدل على المعنى الاسمي فحسب، بدليل أنه لو كان مدلوله اسم مع هذا لا يدل على المعنى الاسمي فحسب، بدليل أنه لو كان مدلوله اسمياً فقط لأمكن استبداله بالاسم ويصح أن نقول: "الإنسانية اهتداء في الإسلام"

بدلاً عن قولنا: "الإنسانية تهتدي في الإسلام" مع أنا نرى أن الجملة تصبح مفككة وغير مرتبطة إذا قمنا بعملية استبدال من هذا القبيل، فهذا يدل على أن الفعل يشتمل إضافة إلى

---

[44] المصدر السابق/ ج 2 ـ 326

المعنى الاسمي على معنى حرفي يربط بين الاهتداء والانسانية في قولنا: "الإنسانية تهتدي في الإسلام". ونستخلص من ذلك أن الفعل مركب من اسم وحرف؛ لأنه يشتمل على معنى اسمي استقلالي، ومعنى حرفي ارتباطي، وهو يدل على المعنى الاسمي بمادته ويدل على المعنى الحرفي بهيئته، ونريد بالمادة الأصل الذي اشتق الفعل منه كالاهتداء بالنسبة إلى "تهتدي"، ونريد بالهيئة الصيغة الخاصة التي صيغت المادة بها، أي صيغة "يفعل" في المضارع و "فعل" في الماضي فإن هذه الصيغة تدل على معنى حرفي يربط بين معنى المادة ومعنى آخر في الجملة. وقد ربطت صيغة "تهتدي" في مثالنا بين الاهتداء والانسانية، أي بين مادة الفعل والفاعل بوصفهما معنيين اسميين. هيئة الجملة: عرفنا أن الفعل له هيئة تدل على معنى حرفي أي على الربط وكذلك الحال في الجملة أيضاً، ونريد بالجملة كل كلمتين أو أكثر بينهما ترابط، ففي قولنا: "على إمام" نفهم من كلمة "على" معناها الاسمي ومن كلمة "الإمام" معناها الاسمي ، ونفهم إضافة إلى ذلك ارتباطا خاصاً بين هذين المعنيين الاسميين، وهذا الارتباط الخاص لا تدل عليه كلمة "علي" بمفردها ولا كلمة "إمام" بمفردها، وإنما تدل عليه الجملة بتركيبها الخاص، وهذا يعني أن هيئة الجملة تدل على نوع من الربط، أي على معنى حرفي. نستخلص ممّا تقدم أن اللغة يمكن تصنيفها من وجهة نظر تحليلية إلى فئتين: أحدهما فئة المعاني الاسمية وتدخل في هذه الفئة الأسماء ومواد الأفعال، والأخرى فئة المعاني الحرفية، أي الروابط وتدخل فيها الحروف وهيئات الأفعال وهيئات الجمل)) ا هـ .

يعني أن كل عملية ربطية تركيبية بين اسم واسم، أو فعل وفاعله... ينتج عنها معنى تَكُون قد حملت المعنى الاسمي والحرفي معاً، كقولنا (جاء محمد) أو (محمد مؤدب)... إلخ.

أوردنا هذا الكلام، رغم أنه في علم الأصول، لكنه جدير أن يوضع في علم النحو واللغة، وهو بالفعل كلام لغوي؛ لأن العلوم تتداخل.

ومن الجدير بالاهتمام أن علم الأصول يدرس بعضاً من علم دلالة الكلام، وهذا يدخل في دائرة اللغة، نعم علم الأصول بعمومه أو بخطوطه العريضة يدرس القواعد العامة أو العناصر المشتركة. وهو عبارة عن منطق فقهي أو فلسفة فقهية خاصة. فمثلاً يدرس اللغة، هل ألفاظها ذاتية الدلالة على معانيها أم جعلية أو اقترانية؟.. وبلا شك أن اللغات كلها اقترانية، فلو كانت دلالتها ذاتية، لما احتاج أحدٌ إلى مترجم يترجم له لغة تخالف لغته، كما هو حال الأنين فالكل يعرف أنه دال على الألم، بل لتوحدت جميع ألفاظ اللغات وصارت لغة واحدة. والمصيبة أن البعض قال بالدلالة الذاتية للغة!!.. وكأن البشرية أصبحت عبارة عن غربان لا تجيد سوى النعيق الذي لا يتغير، الذي جبلت عليه!!، وليست صاحبة لغة إنتاجية صناعية.

كما أن علم الأصول يفرق بين علم الوضع وعلم الاستعمال، وهي علوم يدرسها علم اللسانيات.

يقول السيد محمد باقر الصدر في كتابه "دروس تمهيدية في علم الأصول":

((بعد أن يوضع اللفظ لمعنى يصبح تصور اللفظ سبباً لتصور المعنى، ويأتي عندئذ دور الاستفادة من هذه العلاقة اللغوية التي قامت بينهما، فإذا كنت تريد أن تعبر عن ذلك المعنى لشخص آخر وتجعله يتصوره في ذهنه فبإمكانك أن تنطق بذلك اللفظ الذي أصبح سبباً لتصور المعنى، وحين يسمعه صاحبك ينتقل ذهنه إلى معناه بحكم علاقة السببية بينهما، ويسمى استخدامك للفظ بقصد إخطار معناه في ذهن السامع "استعمالاً". فاستعمال اللفظ في معناه يعني إيجاد الشخص لفظاً؛ لكي يعد ذهن غيره للانتقال إلى معناه، ويمسي اللفظ "مستعملاً" والمعنى "مستعملاً فيه" وإرادة المستعمل إخطار المعنى في ذهن السامع عن طريق اللفظ "إرادة استعمالية"... فالاستعمال الحقيقي هو استعمال اللفظ في المعنى الموضوع له الذي قامت بينه وبين اللفظ علاقة لغوية بسبب الوضع؛ ولهذا يطلق على المعنى الموضوع له اسم " المعنى الحقيقي". والاستعمال المجازي هو استعمال اللفظ في معنى آخر لم يوضع له، ولكنه يشابه ببعض الاعتبارات المعنى الذي وضع اللفظ له، ومثاله أن تستعمل كلمة "البحر" في العالم العزير علمه؛ لأنه يشابه البحر من الماء في الغزارة والسعة، ويطلق على المعنى المشابه للمعنى الموضوع له اسم "المعنى المجازي")).

علم الوضع الأصلي غير علم التخاطب أو الاستعمال، فالأول ينظر للوضع الأصلي من حيث أصالته، والثاني من حيثُ استعماله. أما المعنى، فهو أعم من الوضع والاستعمال.

وبعبارة أخرى علم الدلالة اللغوية غير الدلالة الكلامية، فالأولى تنظر للغة مجردة، والثانية تنظر للكلمات التخاطبية وفقاً لاعتبارات المتكلم واستعماله لها[45].

فمثلاً علب المشروبات الغازية، صنعتها الشركة خصيصاً لتعبئتها بالسائل الغازي، لكن الناس لا يقتصرون على هذا الأمر، بل يستعملونها في وضع أشياء سائلة أخرى، كالماء والزيت والنفط... إلخ.

إن الكلام ليس مجرد ألفاظ صوتية أو كتابية مجردة من الاعتبارات، بل يدخل فيها المقاصد النفسية والشعورية والأحاسيس والأمور الاجتماعية والعرفية؛ ولذلك يُقال على خطاب ما (فحوى الخطاب) أو (ظل الخطاب) أو عن كتاب ما نقرأ (ما بين السطور).

---

[45] اِصطلاحات لسانية بتصرف.

ومن المستحيل أن يفهم أيُّ عالم أصحابَ حضارةٍ ما، معرفة تامة ما لم يعرف طريقتهم الاجتماعية والثقافية والنفسية. فاللغة لا تكفي؛ لأن الدارس لها ربما يفهما فهماً لغوياً مجرداً.

إن اللغة تتغير دلالتها ومعانيها حسب الانفعالات النفسية والاجتماعية والعرفية والثقافية، ويضعف فيها الأصل الوضعي، وتكبر فيها المبالغات ـ اقرأ الشعر العربي، والخطابات الرقمية الطنانة وأنتَ تعرف ذلك!!! ـ فمثلاً كانت بعض القصص تُقص بطريقة خيالية من قبل القصاص في وقتها؛ للتسلية، وكان المستمعون يعرفون ذلك، لكن بعد عقود من الزمن أخذها المستمعون على حقيقتها اللغوية الوضعية!.

إن اللغة تخضع لمفاهيم اصطلاحية[46] وعرفية، ومن لا يعرف هذه الأمور يقع في ورطة، ويكون كل ما تصوره عن حضارة ما، غير صحيح.

إن اللغة وسيلة تخضع لاعتبارات المجتمع المستخدم لها، وليست معادلات رياضية صماء تعطيك الناتج مخالفاً لاعتباراتك، وفقاً لقواعدها الصارمة. فلو كان هناك خمسة رجال، ولا يوجد سوى بيتين للضيافة، وقسمنا الخمسة على الاثنين؛ لأعطتنا المعادلة اثنين ونصفاً؛ لأنها لا تراعي في ذلك المقسوم، سواء كان قابلاً للتجزئة أو غير قابل.

اندكاك المعنى في اللفظ

اللفظ هو الحامل للمعنى، والعلاقة بين الطرفين، هي علاقة اقترانية ذهنية، حتى يصبح اللفظ كأنه المعنى، وتصبح تتعامل مع الألفاظ على أنها هي المعاني، حتى حينما تفكر، فأنك تستخدم الألفاظ بدل المعاني.. خذ مثلاً أنت تقول: (هذا الجيشُ)، مع أن الجيش ليس فرداً، بل أفراد، لكنك تعاملت مع اللفظ على أنه هو المعنى.

وتقول: (هذه جماعة الرجال)).. أشرت للرجال بإشارة مؤنثة، مع أن الرجال ذكور، إلا أنك تعاملتَ مع اللفظ؛ لأنه مؤنث.

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة/8].. ﴿ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴾ [البقرة/200].

---

[46] فمثلاً: شيعة، هم الأنصار والأتباع لغة، لكن هم أتباع الإمام علي (ع) اصطلاحاً.

ويصح أن يقال: (ومن الناس من يقولون آمنا).. طبعاً هذه الطريقة لا تغير معنى، بل هي نوع من أنواع الأساليب اللفظية.

لو قال شخصٌ: (هذه جبلٌ أشم). فإن السامع يفهم أن المتكلم يقصد امرأة عظيمة صاحبة شأن كبير. حتى لو كان المتكلم يقصد الجبل الحقيقي، لكنه لم يشر بيده إليه إن كان بقربه، أو يضع قرينة على كلامه...

ولو قال: (هذا امرأة جميلة)، لفهم السامع أن المتكلم يقصد بكلامه رجلاً جميلاً، يحاكي جمال المرأة... إلخ. نستطيع أن نسمي هذا النوع: (تجاذب الدليلين)، لكن في المحصلة يتفوق دليل على آخر ـ وهو هنا دليل الإشارة ـ فمن جانب دليل الإشارة المؤنثة، ومن جانب دليل المشار إليه المذكر، أو العكس..

طبعاً التفوق منوط بالاستخدام، فلو استخدمت هذه الطريقة، حتى ولو بقلة؛ لتفوق دليل المشار إليه على دليل الإشارة.

وقد استحدثت ظاهرة شاذة في القنوات الفضائية، وهي تذكير الصفة للمؤنثة، في المناصب الحكومية.. فمثلاً يقولون: (حمديّة صالح عضو مجلس النواب).. (خديجة صلاح وزير الخارجية)... وهذه الطريقة غير سليم، فمثلاً لو كان الاسم مؤنثاً تأنيثاً لفظياً مشتركاً بين الجنسين، مثل "صباح"، وقيل: (صباح عضو مجلس النواب)، لالتبس على السامع، هل "صباح" ذكر، أم أنثى؟.

مناقشة

يقول ابن مالك في تعريف الاسم في قصيدته الشهيرة:

بالجر والتنوين والنداء وأل ومسند ـ للاسم تمييز حصل

يعني أن علامات الاسم [وهي خمس علامات]، هي الجر، نحو (إلى محمدٍ). فمحمد مجرور، وهو أيضاً منون، كما ترى.. والنداء، نحو: (يا محمد).. وال، نحو: (البيت).. ومسند، نحو: (محمدٌ كريمٌ).. فقد أسندتَ الكرم لمحمد، فالكرم مسند، ومحمد مسند إليه.

وقال عن الفعل:

بتا فعلتَ وأتتْ، ويا افعلي ونون أقبلنّ ـ فعلٌ ينجلي

يعني أن علامات الفعل [وهي أربع علامات]، هي تاء الضمير، نحو: (أكلتُ) للمتكلم، أو (فعلتَ) للمخاطب، أو (فعلتِ) للمخاطبة المؤنثة.. وتاء التأنيث الساكنة، نحو: (أكلَتْ).. ويا افعلي، يعني ياء المخاطبة المؤنثة، نحو: (اكتبي).. ونون أقبلنّ، يعني نون التوكيد، نحو (اكتبنَّ، اكتباً).

لكن التاء ساكنة دخلت على الحروف، مثل (ثُمَّتْ)، وبهذا أصبحت مشتركة بين الفعل والحرف، حتى وإن كانت الحروف قليلة أو نادرة. المهم أن القاعدة الكلية قد ضربت. اللهم، إلا أن تكون هذه القاعدة تسامحية أو تغليبية.

مخارج ملتوية!

في باب الاشتغال. وقد عرفه ابن عقيل: أن يتقدم اسمٌ، ويتأخر عنه فعلٌ عملَ في ضمير ذلك الاسم أو في سببيه... وعرفه الدكتوران: علي الجارم ومصطفى أمين في النحو الواضح: "الاشتغال أن يتقدم اسمٌ ويتأخر عنه عامل مشتغل عن نصبه بضميره، أو نصب المتصل بضميره، بحيث لو ارتفع لنصبه، ويسمى هذا مشغولاً عنه".

مثال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ . [التوبة/6]

﴿إِنْ أَحَدٌ استجارك﴾.. فقالوا: بما أن (إنْ) لا تدخل، إلا على الأفعال، فلابد من تقدير فعل، وليس اسماً قبل (أحد)، فيكون: (إنْ استجارك أحدٌ استجارك).

وربما ورد الاسم منصوباً، نحو: (إن الحبيبَ قابلتُه، فلا تغضبه).. فقالوا ما الذي نصب الاسم، ما دام الفعل الذي بعده مشغولاً بضميره؟. فلابد من تقدير فعل قبل الاسم.

والتقدير: (إن قابلتُ الحبيبَ قابلتُه)..

لكن أوردوا بيتاً، واستشهدوا به، وهو:

لا تَجزعي إنْ منفسٌ أهلكتُهُ فإذا هلَكْتُ فَعند ذَلك فاجزعي

فحينما نقدّر فعلاً قبل كلمة (منفسٌ)، يصبح المعنى:

(لا تجزعي إن هلكَ منفسٌ أهلكتُه، فإذا هلكتُ، فعندي ذلك فاجزعي)

فيكون هناك تناقض، فالهلاك غير الإهلاك؛ لأن الهلاك ذاتي. أما الإهلاك، فخارجي. فكيف يستقيم ذلك؟.

والحقيقية هو أن المعنى: "لا تجزعي إن أهلكتُ منافساً لي، اجزعي حينما أهلكُ أنا".. سواء كانت كلمة (منفس) مرفوعة أو منصوبة أو مخفوضة، فلا قيمة لها على حساب المعنى؛ لأنها أسيرته، وليس هو أسيرها.

في شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك:

((واختلف النحويون في ناصبه: فذهب الجمهور إلى [أن] ناصبه فعل مضمر وجوباً، [لأنه لا يجمع بين المفسر والمفسر] ويكون الفعل المضمر موافقاً في المعنى لذلك المظهر، وهذا يشمل ما وافق لفظاً ومعنى، نحو قولك في "**زيداً ضربته**[47]": إن التقدير "**ضربت زيداً ضربته**" وما وافق معنى دون لفظ كقولك في "**زيداً مررت به**": إن التقدير: "**جاوزت زيداً مررت به**". وهذا هو الذي ذكره المصنف)).

كما تلاحظ في الأولي كرروا الفعل، نحو: (**ضربتُ زيداً ضربتُهُ**)، لكن في نفس الكلام غيروا الفعل: (**جاوزت زيداً مررت به**)؛ لأنهم لو صدروا الفعل (مررتُ) اسم زيد؛ لتطلب جره بحرف الباء؛ لأن الفعل لازم. فيكون (**مررتُ بزيدٍ مررتُ به**). فلابد من وضع فعل متعدٍّ يتناسب مع نصب زيد، فاختاروا "جاوزت". وهو فعل رديف أو قريب منه.. وبهذا ضربوا القاعدة التي تضع الفعل، الذي بعد الاسم قبله!!..

هل عرفتم كيف خلق النحاة لغة مفترضة، بسبب اعتمادهم على الحركات؟!.. والحقيقة أن الأسماء المتصدرة المذكورة هي مفعولة في البعض، وفاعلة في البعض الآخر... المعنى هو الحكم، ولا يحق للحركات الإعرابية أن تضع المعاني في زنازين سجونها المظلمة!!.

التنازع..

قالوا: "التنازع، هو تسلط عاملين على معمول واحد".. نحو: ﴿قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الكهف/96].. وكما تلاحظ، فإن النحاةَ جعلوا العامل قطباً تدور عليه رحاهم![48].

---

[47] الكوفيون جعلوا الفعل المتأخر، هو الناصب و الرافع.

[48] في اللهجة العامية العراقية لم أسمع أحداً يقول بهكذا أسلوب، إنما يقولون: (اشتريت اللحم وأكلته)، لكن لا يضير أن تقول: (اشتريت وأكلت اللحم). لأنه يجوز عندهم أن تقول ما شئت، بشرط أن لا تخالف

يتبين لك من هذا التعريف أن النحاة ينتهجون منهجاً فلسفياً.. وإلا فالحركات الإعرابية، هي علامات توضيحية.

في كتاب "التبيان في إعراب القرآن" للعكبري:

((قطراً مفعول آتوني، ومفعول أفرغ محذوف، أي أفرغه. وقال الكوفيون: هو مفعول أفرغ ومفعول الأول محذوف)).

لكن ابن عقيل ذكر عكس ما قاله العكبري، فقال:

((ولا خلاف بين البصريين والكوفيين أنه يجوز إعمال كل واحد من العاملين في ذلك الاسم الظاهر، ولكن اختلفوا في الأولى منهما. فذهب البصريون إلى أن الثاني أولى به؛ لقربه منه، وذهب الكوفيون إلى أن الأول أولى به؛ لتقدمه)).

القول: إن العاملين لا يتسلطان على معمول واحد، هذه من تأثر النحاة بالفلسفة القديمة، وإلا ما المانع من أن يتسلط العاملان على معمول واحد؟.

فلنفترض أن العاملين رجلان، والمعمول شيء ما، وقد ضرب الرجلانِ الشيءَ ضربة مزدوجة في نفس الوقت، فهل يكون ممتنعاً هذا الأمر، أو متعسراً؟!.

طريقة العامل الفلسفية، التي جلبوها من الفلسفة اليونانية، هي التي لعبت في كيان النحو، وحولته إلى أقيسة فلسفية، وهو بعيد عنها كل البعد؛ لأن اللغة العربية متسامحة، وليس صارمة، وقد لجأوا إلى العلامات (الضمة والكسرة والفتحة) كعلامات دالة، إذا التبس الأمر، وإلا تخلوا عنها أحياناً[49]، بل ربما نصبوا الفاعل ـ كما مرّ عليك ـ ورفعوا المفعول... وبما أن النحاة يريدون تقعيدَ قاعدة، وقعوا في المطبات الوعرة؛ لأن الكلام ذوقي استحساني لا توجد له علامات رياضية أو منطقية أو فلسفية صارمة.. وخصوصاً البصريين، فقد أسقطوا القياس المنطقي على كلام العرب اسقاطاً فجّاً، حتى وصل بهم الأمر أن ينكروا كلَّ كلامٍ خالف القياس المنطقي، الذي وضعوه!.. إنهم يضعون اللّغة على سريرهم، فإذا خرجت أطرافها عنه بتروها، وإذا لم تستوعب السرير، جروها، حتى تتفكك فقرات ظهرها ورقبتها!!.

القاعدة الذوقية خلافاً فجاً.. وأنا أجلس معهم وأتكلم بأساليب لم يتكلم بها كبار السن أبداً، ولم يعترض عليّ أحد.

[49] لماذا لا يتخلون عنها دائماً؟... لأنهم تعودوا عليها، حتى وإن فقدت دلالتها، بل أصبحت عكس المطلوب، كما في (خرق الثوبُ المسارَ).

لقد حجروا اللغة داخل زنازين أقيستهم وقواعدهم، وكانوا ينظرون إليها كلغة رياضية رقمية ونظروا إليها مجردة من كل الاعتبارات؛ فلذا لووا عنقها لياً. وجعلوا دلالة المعنى شبه محصورة في الحركات الإعرابية، وهي الدليل الأعظم، الذي يجب أن تتبعه كل الأدلة طوعاً أو كرهاً!؛ لذلك يعبثون بالسياق والمعنى معاً لمصلحة الحركات الإعرابية. ثم إن ما ذهبوا إليه من شعر وكلام، حتى وإن صح صدوره، فهو نتاج لهجات متعددة، وليس لغة موحدة، كما هي حالنا الآن، فعلى سبيل المثال كلمة (هنا) المكانية تلفظ في العراق بثلاث لهجات: البدوية تلفظها (هان)، وبعضهم (هانه)، وأهل الأنبار وصلاح الدين يلفظونها (هَين). أما البقية فيلفظونها (إهناه)، وفي لبنان (هَون)، وفي بعض اللهجات الحجازية (إهنيّا)... وحينما تذهب للكتب تجد بعضهم يقول: سمتِ العربُ الأسدَ خمس مئة اسم!!.. فهل يعقل أن لغة موحدة ـ مجنونة! ـ تضع هذا الكم ـ المقرف! ـ من الأسماء لحيوانٍ واحد؟!!.

فهل هؤلاء يريدون أو يتبعون لغة منهجية موحدة، يا نحاتنا الأشاوس رضي الله عنكم وأرضاكم؟!!.. خمس مئة اسم لحيوان!!.. (طبعاً هذه مبالغة في العدد، ثم إن هذه ليست كلها أسماء، بل أغلبيتها صفات).

ومن الطرائف المضحكة ما ذكرها صاحب كتاب (المستطرف في كل فن مستظرف):

((... حدثني إسحاق بن إبراهيم عن الهيثم بن عدي. قال كان في المدينة رجل من بني هاشم وكان له قينتان يقال لأحداهما رشا وللأخرى جؤذر، وكان بالمدينة رجل مضحك لا يكاد يغيب عن مجلس المستطرفين، فأرسل الهاشمي إليه ذات يوم ليسخر به، فلما أتاه، قال له: أصلحك الله إنك لفي لذتك ولا لذة لي. قال وما لذتك؟. قال تحضر لي نبيذاً، فإنه لا يطيب لي عيش، إلا به فأمر الهاشمي بإحضار نبيذ وأمر أن يطرح فيه سكر العشر، فلما شربه المضحك تحرك عليه بطنه، فتناوم الهاشمي وغمز جاريتيه عليه، فلما ضاق عليه الأمر واضطر إلى التبرز. قال في نفسه ما أظن هاتين المغنيتين، إلا يمانيتين وأهل اليمن يسمون الكنف بالمراحيض، فقال لهما يا حبيبتي أين (**المرحاض**)؟. فقالت إحداهما لصاحبتها ما يقول سيدنا؟. قالت: يقول غنياني:

رحضت فؤادي فخليتني أهيم من الحب في كل وادي

فاندفعتا تغنيانه، فقال في نفسه: والله ما أظنهما فهمتا عني وما أظنهما، إلا مكيتين وأهل مكة يسمونها (**المخارج**)، فقال يا حبيبتي أني المخرج؟. فقالت إحداهما لصاحبتها ما يقول سيدنا؟ قالت يقول غنياني:

خرجت لها من بطن مكة بعدما أقام المنادي بالعشي فأعتما

فاندفعتا يغنيانه فقال في نفسه لم يفهما عني وما أظنهما إلا شاميتين وأهل الشام يسمونها المذاهب فقال يا حبيبتي أين المذاهب؟ فقالت إحداهما لصاحبتها ما يقول حبيبنا؟ قالوا يقول غنياني:

ذهبت من الهجران في كل مذهب ... ولم يك حقا كل هذا التجنب

فغنتاه الصوت، فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لم يفهما عني وما أظن القحبتين، إلا مدنيتين وأهل المدينة يسمونها (**بيت الخلاء**). فقال يا حبيبتي أين بيت الخلاء؟. فقالت إحداهما لصاحبتها ما يقول سيدنا؟. قالت يقول غنياني:

خلا علي بقاع الأرض إذا ظنوا من بظن مكة واستراعائي الحزن

قال فغنتاه، فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون ما أظن الفاسقتين، إلا بصريتين وأهل البصرة يسمونها (**الحشوش**)، فقال يا حبيبتي أين الحشوش؟. فقالت إحداهما لصاحبتها ما يقول سيدنا؟. قالت يقول غنياني:

أوحشوني وعز صبري فيهم ما احتيالي وما يكون فعالي

قال فاندفعتا تغنيانه، فقال ما أراهما، إلا كوفيتين وأهل الكوفة يسمونها (**الكنف**)، فقال لهما يا حبيبتي أين الكنيف؟ فقالت: إحداهما لصاحبتها يعيش سيدنا، ما رأيت أكثر اقتراحاً من هذا الرجل. قالت ما يقول؟. قالت: يسأل أن تغني له:

تكنفني الهوى طفلاً فشيبني وما اكتهلا

فقال: واويلاه وأعظم مصيبتاه.. هذا والهاشمي يتقطع ضحكاً. فقال لهما يا زانيتان إن لم تعلماني به أنا أعلمكما، ثم رفع ثيابه وسلح عليهما وعلى الفراش، فانتبه الهاشمي، وقد غشي عليه من شدة الضحك. وقال ويلك ما هذا، تسلح على وطائي؟. فقال الرجل: حياة نفسي أعز علي من وطائك...)).

ومن المساوئ، التي وقع فيها النحاة أن أغلب استشهادهم بالشعر، مع أن الشعر يجوز فيه ضرب المقررات الذوقية للكلام، أو القواعد الذوقية الكلامية، في اللغة الفصحى والعامية معاً.

يقول الشاعر العراقي الشعبي:

أَوفْ أُمِدَاهَا الرّوحْ أَوفْ أُمِدَاهَا تِمْشِيْ وَرَا الْيِمْشُونْ چَانَوْا وَرَاهَا[50]

وأصل الكلام: (تمشي ورا الچانوا وراها يمشون) وفقاً للقواعد النثرية الذوقية، لكنه قدم وأخر من أجل الوزن والقافية.. "فعند الضرورات تحل المحظورات"!.

وقد ذكر النحاة شواهد أربكتهم، فراحوا يغربون ويشرقون؛ حتى لا يخرجوا عن قفص قواعدهم الذي وضعوا أنفسهم فيه.

كَذبَ العتيقَ وماء شن بارد إن كنتِ سائلتي غبوقاً فاذهبي

برفع كلمة (العتيق) ونصبها.. فالرفع معروف؛ لأن الفعل الماضي (كذبَ) فاعله (العتيقُ)، لكن إذا كان العتيق منصوباً ماذا يفعل النحاة؟.

قالوا إن الفعل (كذب) تضمن معنى الأمر!!!. ومعناه "الزم"!.. وكل هذا الكلام مجرد ترقيع للحفاظ على القاعدة.. والحقيقة أن (العقيق)، هو فاعل سواء كان مرفوعاً أو منصوباً أو مجروراً أو ساكناً؛ لأن المعنى حاكم على الإعراب النحوي، وما الإعراب، إلا فرع وُجِدَ لمعرفة صحة المعنى، فإن لم يؤدِ الغرض بطل عملُه.

(كذبَ) الفعل الماضي معناه (الزم) وهو فعل أمر!!!.. تجرأوا على التلاعب في الفعل وألبسوه ثوب غيره وجعلوه أضحوكة، وحولوا جنسه من الماضي إلى الأمر!!، بل تلاعبوا بالجملة بأكملها، لكنهم انهزموا أمام فتحة، لا وجود لها في الرسم!!، بل لا يعترفون حتى بأمها "الألف اللينة"، حتى وصل الأمر ببعضهم أن يحذفها من الحروف، ويجعلها فتحة مطولة!!.. فتحة مطولة!!.. ما هذا التعريف الإعجازي الغريب العجيب؟!!. ولماذا لا تكون الياء كسرة مطولة، والواو ضمة مطولة؟!.

ومن ترقيعهم للقول: (ليتَ أنّ محمداً حاضرٌ) قالوا: إن ما بعد (أنّ) وهو معمولاها، هو اسم (أنّ) بعد التأويل بمصدر ولا خبر لـ(أنّ)؛ لأن الخبر لا يستقيم إن ذكر. وبعضهم قال المصدر المؤول سدّ مسد الخبر.

وكل هذا العبث بسبب العامل.. والحقيقة أنّ (ليت) أخذت معناها سواء وجد بعدها (أنّ) أم لم توجد؛ لأن الأصل المعنى. وأما العامل، فهو اختراع من اختراعات النحاة.

---

[50] "أوف" كلمة مهمة تقال عند الضجر[عند بعض النحاة اسم فعل، معناه "أتضجر"].. امداها. تعني تعساً لها.. البدو لا يقولون: (امداها)، بل (همداها).

وإذا أردنا أن نتبع كلامهم في (العامل) يمكن أن نقول: إن (محمداً) هو (اسم) ليت، لكن (أن) نصبته، فهو معمول لـ(ليت) و(أنّ) معاً، وكذا (حاضرٌ).

وقالوا: (خطيئةُ يومٍ لا أصيد فيه) مبتدأ لا خبر له؛ لأن ما بعد يوم هو صفة له، وليس خبراً لخطيئة. وفي الحقيقة إن الخبر محذوف؛ بسبب تأدية الكلام للغرض، ويمكن أن نقدر الخبر (كبيرةٌ) وتكون خبراً وليس صفة على غرار (تفاحةٌ حلوةٌ)، فتفاحة مبتدأ، وإن كانت نكرة مجردة من الإضافة. هكذا: (خطيئةُ يومٍ ـ لا أصيد فيه ـ كبيرةٌ). فالنحاة وضعوا التقديرات والتحويرات... فلماذا عجزوا عن هذه الجزئية؟!.

وإلا فاعلموا أنَّا وأنتم بغاةٌ ما بَقِينا في شِقَاقِ

فقد عطف ضمير الرفع المنفصل (أنتم) على (نا) المتصل في (أنّ) وهو ضمير نصب [اسم أنّ].

قالوا: الأصل (فاعلموا أنّا بغاةٌ وأنتم). وهذا كلام لا بأس به، فالشعر يخالف النثر، بل حتى النثر ليس له قاعدة صارمة. وقد قال المخزومي: أن واسمها بمنزلة الكلمة المرفوعة والمسند إليها... والحقيقة أن العطف هو على (أنّا) أي: على اسم أنّ.

ومن المخارج الملتوية النعت الغير مطابق لمنعوته، نحو: (مررتُ بزيدٍ العادلُ). قالوا كلمة (العادل) مسبوقة بكلمة (هو) مقدرة!. هكذا: (مررتُ بزيدٍ هُو العادلُ).

والحقيقة أن العادل صفة وفقاً للسياق، سواء كان مرفوعاً أو منصوباً أو مخفوضاً.. الحكم للمعنى، وليس للحركات إن شلّت حركة السياق!.

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ . . . ﴾ [البقرة/177]

﴿ . . . وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى . . . ﴾ [البقرة/189]

(ليس البرَّ) .. (ليس البرُّ)، تارة ناصبة للاسم، وتارة رافعة.. لقد تحالفت هذه المرة "ليس" مع "إنّ" أو خانت العهود!!!. الحمد لله لم تكن الأخت الكبيرة "كان" وإلا لحصلت مصيبة!!.

لكن لا بأس فهناك محامون أشاوس يستطيعون الدفاع بكل الوسائل، فعلى "ليس" أن لا تخفْ ولا تحزن، فكل شيء يهون!.. أعرب النحاة (ليس البرَّ أن تولوا).. "البرَّ" خبر ليس مقدم.. "أن تولوا" اسم ليس، بعد تأويله وتحويله من فعل إلى اسم!.. فعل يصبح اسماً، بعد التحوير والاستحالة والتدوير، وسلخ جلده الزماني منه!!.. لله دركم ما أعظمكم؟!.

ألم يقل الأصوليون: إن الفعل يحمل مادة وهيئة. فأين ذهبت الهيئة؟!.. ألم تقولوا أنتم: إن الفعل مكون من زمان وحدث؟!. فأين ذهب الزمان؟!.

كل هذه التحويرات بسبب الحركات. ونحن نسال: إذا كانت الحركات بهذه العظمة، بحيث هي المادة الدالة على معرفة النص، فلماذا تجاهلتموها ولم ترسموها، كما رسمتم الحروف؟!!.

﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس/10].

﴿قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ [طه/63]

ومن المعروف أنّ الحرف (أَن) و (إِن) ينصبان ما بعدهما وفقاً لقواعد النحاة، لكن في الآية نجد أنّ ما بعدهما مرفوع: (أَن الحمدُ)، وليس (أن الحمدَ).. و (إِن هذان لساحران)، وليس (هذينِ لساحران)، فقالوا: إنهما (أَنَّ) و(إِنّ) المخففتان، فإذا خففت "أن" كان اسمها ضمير شأن محذوف.. والتقدير: (أَنه الحمدُ)!!.

أما (إنّ) لا تعمل بعد التخفيف ((دخلت دار المسنين!!)). وإذا بطل عملها يتصدر حرفُ اللامِ اسمَها للتفريق بينها وبين (إن) النافية! ((أخت كان بالتبني!!)).

تصور أنّ (كان) من الأفعال "الناقصة"، و(إنْ) من الحروف "العاملة"، و"كان" موجبة، و "إن" سالبة، لكنها من أخواتها!!.. ومن العجيب أن كانَ "الناقصة" تصبح كاملة، وتصبح أختاً للأفعال الأخرى التامة، تكتفي بالفاعل!!.

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم/17].. فقد اعترف النحاةُ بأن (كان) هذه تامة تكتفي بالفاعل. لكنها أحياناً لا تصبح ناقصة فحسب، بل لا عمل لها أبداً ((تدخل دار المسنين)) مثل " أنّ" المخففة!!.. ﴿ . . . وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [النساء/96].. قال النحاة: إن "كان" هنا زائدة غير عاملة، لا محل لها من الإعراب!!.. ((ولا ندري إذا أصبحت عاطلة، فمن يعيل أخواتها الشقيقات والمتبنيات))؟!.

إنّ "كانَ" تتغير كالحرباء، فتارة تامة، وتارة ناقصة، وتارة فارغة!!.. وهذا حسب تصنيف النحاة!!.

﴿لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [المنافقون/ 10].

كلمة (أصدقَ) منصوبة، وكلمة (أكنْ) مجزومة، مع أن الثانية عُطفت على الأولى!.. ولا نريد أن نتطرق لتبرير النحاة الملتوي!.

بدا لي أنّي لستُ مدركَ ما مضى ولا سابقٍ شيئاً إذا كان جائياً

(مردكَ) منصوبة، و (سابقٍ) مجرورة. وقد عطفت المجرورة على المنصوبة.. وبعيداً هن تبرير النحاة!.

وليلٍ كموج البحر أرخى سدوله عليَّ بأنواع الهموم ليبتلي

قالوا: كلمة (ليل) مجرورة بواو (رُبّ).. لكن رُبّ غادرت المكان، وأعطت منصبها "الجرّار" للواو!!. فصارت الواو تجر وتنصب، ولا تجر ولا تنصب!.. ومن حيث المعنى: عاطفة وحالية ومقحمة.

حقيقة ما يثير الانتباه بهذا البيت آنف الذكر، هو علاقة الفعل (أرخى) بالاسم (ليل)، ولا يستبعد أن تكون كلمة ليل فاعلاً لـ "أرخى".. وربما تكون الواو قبل كلمة ليل واو عطف، عطفتها على كلمة أخرى لم تصل للنحاة.

وقد أنكر قطرب دلالة الحركات الإعرابية، وجعلها مجرد حركات جاءت لدرج الكلام فقط. ولذلك تجد العرب يسكنون آخر الكلمة عند الوقف.. ما قاله قطرب ينطبق على اللهجات العربية المعاصرة بأسرها: (عراقية.. خليجية.. أردنية.. يمنية.. سورية.. لبنانية.. سعودية.. مصرية... إلخ).

وبعض المعاصرين [إبراهيم مصطفى] يرى: إن الضمة علماً للإسناد، والكسرة علماً للإضافة. وما عدا ذلك يضعون علية الفتحة، فالفتحة هي الحركة الخفيفة عند العرب.

هناك سؤال يطرح نفسه، وهو إذا كانت الحركات الإعرابية مهمة بهذا الشكل الذي يذكره النحاةُ ـ فلماذا تُحذف عند السكوت على آخر الكلمة؟!. بل إن النحاة يجيزون أن تُنطق مفردات الجملة مع تسكين أواخرها!.. أليس هذا معناه التخلي عن الدلالة النحوية والاعتماد على السياق والطبيعة؟!. ولنضرب مثالاً على التسكين، فلو قلتَ: (محمدٌ جالسٌ) بالتحريك.. أو قلتَ: (محمدْ جالسْ) بالتسكين، لما تغير؛ لأن الحركات ـ هنا ـ تكاد أن تكون فائدتها معدومة؛ لأن المعنى قد تم بدونها.

إعراب يحتاج إلى إعراب!

وفي الحقيقة في النحو غرائب!، فمثلاً: (أكلَ الرجلُ الخبزَ). أكلَ فعل ماض مبني... والرجلُ فاعل مرفوع... والخبزَ مفعول منصوب... لكن لو غيرنا الصيغة، وبنينا الفعل للمجهول، فيصبح المفعول المنصوب بالفتحة، مرفوعاً بالضمة!. (أُكِلَ الخبزُ). ويعرب "الخبز" نائب فاعل.. مع أنه مأكول في الحالتين!!.. كيف يكون مفعولاً ونائبَ فاعل؟!.. إنه تناقض صارخ بين الإعراب والمعنى!!.. ثم كيف تحول المأكول إلى آكل، وهو مأكول فعلاً وواقعاً؟!.

ألم يكن بإمكانهم أن يقولوا: أُكِلَ: فعل... والخبزُ: مفعول به مرفوع لفظاً بسبب بناء الفعل للمجهول؛ حتى يكون التعريف منسجماً مع المعنى انسجاماً منطقياً!.

وغريبة أخرى: (ضربَ محمدٌ الكرسيَّ)، فالكرسي مفعول به؛ لأن الضرب وقع عليه، فهو مضروب. والإعراب: ضرب فعل مبني... محمد: فاعل مرفوع... الكرسي: مفعول به منصوب...

لكن لو قلنا: (جلسَ محمدٌ على الكرسي)، فالإعراب: جلسَ: فعل ماض مبني... محمد: فاعل مرفوع... على: حرف جر... الكرسي: اسم مجرور... والجار والمجرور متعلقان بالفعل (جلس).

ماذا يعني هذا؟!.. تعريف بعيد عن المعنى والواقع.. إنه مجرد فذلكة لفظية تزيد الإبهام إبهاماً!.. مع أن الكرسي مفعول به أيضاً؛ لأنك تستطيع أن تقول: (الكرسي مجلوس عليه). وهو فعلاً وواقعاً مجلوس عليه. وما حرف الجر، إلا واسطة؛ لأن الفعل من الجانب اللفظي قاصر عن تأدية الغرض بنفسه. والفرق بين الفعل (ضرب) والفعل (جلس)، كالضرب باليد والضرب بعصا، من قبلِ شخص واحد. فالعصى مجرد واسطة لليد، فلو ضربتَ شخصاً بيدك أو بعصاك التي تحملها يدك، ففي كلتا الحالتين أنت الضارب، وفي حالة الاعتداء، أنت المعتدي وستذهب للسجن، بعد أن تدينك المحكمة!.

ونستطيع أن نقول: الكرسي مفعول به معنوياً، ومجرور لفظياً بسبب حرف الجر.. وقد تطرق النحاة لهذا المعنى، لكنهم اقتصروه على الفعل المتعدي الذي يدخل على مفعوله حرف زائد. ﴿ . . . وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ . . . ﴾ [المائدة/ 6]. فقالوا: الرؤوس مجرورة لفظاً، مفعول بها معنى؛ لأن الأصل (وامْسَحُوا رُؤُوسَكُمْ)؛ لأن الفعل (امسحوا) متعدٍ بنفسه.. إنهم يتعاملون مع اللفظ ويهملون المعنى!. وإلا لا فرق بين هذا وذاك، فكلاهما مفعول به من حيث المعنى.

الاختصاص.

بما أن النحاة وجدوا الاسم بعد الضمير "نحنُ"، مثل: (نحنُ المجتمعينَ لا نتفرق) ـ قالوا هناك فعل مقدّر بعد "نحن" تقديره "أخصُّ"!.

وكذا في المنادى المنصوب، نحو: (يا دارَ سلمى)، قالوا هناك فعل بعد يا مقدر، تقديره "أدعو"!.

تعريفات لا تتطابق مع الواقع!..

يقولون [النحاة] إن الفعل الماضي مبني.. ونحنُ نفهم من البناء أنه لا يعتريه التغيير ولا الاستحالة، لكننا واهمون!. فالماضي مبني على الفتح مجرداً، أو مع تاء التأنيث (أكلَ، أكلَتْ) ومبني على السكون مع ضمير المتكلم أو المخاطب (أكلْتُ، أكلْتَ)، ومبني على الضم مع واو الجماعة (أكلُوا).. (باسم الأب والابن وروح القدس إلهاً واحداً)!!!..

في الحقيقة، هو متغير، وليس مبنياً؛ لأنه قد تغير ثلاث مرات، وإذا كان يحمل كل هذا التغيّر، ومع ذلك مبني، فاعلمونا يرحكم اللهُ ما هو المتغير؟!!.

تعال مع إلى لفعل "المضارع"، والمضارع يعني "المشابه" للاسم!! ـ تعريف مخالف للمنهجية العلمية، فما دام هناك: أمر وماضي، فلابد أن يكون الثالث مستقبلاً[51]، تعريف ليس له علاقة بالزمن ـ وقالوا عنه: إنه معرب!! ((مسكين إيها المضارع وضعوا لك اسماً خاطئاً قد خالف مهنتك، وفوق هذا جعلوك متغيراً متملقاً!!)).

قالوا عن المضارع: إنه معرب، وإنه مرفوع وعلامة رفعه الضمة ـ لاحظ أن هذا التعريف للأسماء ـ وينصب إذا سبقته أداة نصب، مثل "لن"، ويبنى على السكون إذا اتصلت به نون النسوة: (يكتبْنَ)، ويبنى على الفتح إذا اتصلت به نون التوكيد: (يكتبَنَّ)..

قبلنا على مضض أن يكون الماضي مبنياً على ثلاثة أنواع، لكن أن يكون "المضارع" معرب ومبني، فهذا صعب القبول!!.

لو عمموا تعريفهم، وقالوا معرب في كل الأحوال، لكان الأمر أبسط وأسهل وأكثر ملائمة، لكنهم أبوا، إلا أن يخالفوا المنهجية والسلاسة في التعريف!!.

لا سيما

[51] فعل الماضي والمستقبلي (المضارع) هما فعلان خبريان يعكسان الواقع في الأصل. أما فعل الأمر، فهو فعل إنشائي لا يعكس واقعاً في الأصل.

لا سيما هي كلمة تفضل ما بعدها على ما قبلها تفضيلاً زائداً.. فمثلاً حينما أقول: (أحب علياً لا سيما محمدٌ) فمحمد فضلته أكثر من علي.

أما إعرابها، فقد جعله النحاة من المعضلات!، فقد بالغوا في إعرابها كثيراً، حتى أصبح القارئ يشعر بالملل من كثرة هذه الفرعيات التي بالغوا فيها.

(يكرم المجدون لا سيَّمَا مجتهدٌ في المدرسة)، فكلمة "مجتهد" يجوز أن تقرأ بالرفع والنصب والجر؛ لأنها نكرة. أما إن كانت معرفة، فترفع وتجر فقط.

الإعراب: قالوا (لا) نافية للجنس.. (سيّ) اسمها. وخبرها محذوف وجوباً. (ما) موصولة، أو نكرة موصوفة، أو زائدة. (مجتهد). إما خبر لمبتدأ محذوف، تقديره "هو"، وتكون هذه الجملة من المبتدأ والخبر صلة الموصول؛ لأن (ما) تكون موصولة، أو صفة باعتبار أن (ما) نكرة موصوفة بمعنى (شيء)، وأما الجر فبمعنى "سي إليه" وتكون (ما) زائدة.

أما إذا جاء بعد "لا سيما" اسم معرفة، فاقتصروا على الرفع والجر؛ لأن المعرفة لا تكون تمييزاً لـ(ما).

كل هذه الأساليب المتعددة؛ بسبب "العامل" المؤثر؛ لأنهم يرون أن الكلمة لا ترفع أو تخفض أو تنصب، إلا بسبب عامل أثر فيها.. وهي نفس فكرة العلة والمعلول في الفلسفة وعلم الكلام. والحقيقة لا يوجد عامل، بل الرفع أو الخفض أو النصب علامة دالة على الكلمة ذاتها. فالعرب وضعوا حركات بطريقة بسيطة على بعض الكلمات؛ لتمييزها؛ لأنهم يشتتون عناصر الجمل، وهي الكلمات؛ بسبب أن كلامهم (أدبي، سجعي، شعري) يعتمد على الحلاوة الذوقية، وليس على قياس منطقي صارم، فهو كجمال الفتيات يعرف بالذوق، وليس له قاعدة تحده.

في جامع الدروس العربية للغلاييني:

((وقد تستعمل "لا سِيّما" بمعنى "خصوصاً"، فيؤتى بعدها بحال مفردَةٍ، أو بحال جملة، أو بالجملة الشرطية واقعة موقعَ الحال. فالأول نحو "أحِبُّ المطالعةَ، ولا سيّما منفرداً". والثاني نحو "أحبُّها، ولا سيما وأنا منفردٌ". والثالثُ نحو "أحبُّها، ولا سِيّما إن كنتُ منفرداً".

وقد يليها الظرفُ، نحو "أحبُّ الجلوسَ بين الغِياضِ، ولا سِيّما عند الماء الجاري"، ونحو "يَطيبُ لِيَ الاشتغالُ بالعلم، ولا سيّما ليلاً"، أو "ولا سِيّما إذا أَوَى الناسُ إلى مضاجعهم")).

بالله عليكم هل تلومون الطلاب حينما يرسبون في مادة النحو، رغم قلتها، وينجحون في المادة الإنكليزية؟!.

إن الطالب يحتاج لعقدٍ من الزمن حتى يستوعب الفذلكات، التي صنعها المتحذلقون في "لاسيما" وحدها.. إنها فذلكات عقيمة غير مثمرة!.

هل هذه لغة بيان أم لغة طلاسم؟!.. ثم هل هذا الذي فعله النحاةُ إعراب أم خراب وسراب ونعيق غراب؟!.. ((مع كل احترامي لذواتهم))..

وقد أنكر النحاةُ ما خالف قواعدهم المفترضة، مع أنه ورد في القراءات المروية عن أصحابها، وهم علماء القرآن!، فمثلاً استقبحوا القراءة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء/1]. وهي التي خفضت الميم من كلمة (الأرحام)، فقالوا: إن كلمة (أرحام) لا تعطف على الضمير الواقع بد باء الجر؛ لأن الاسم لا يعطف على المضمر.. وقد رد عليهم الرازي في تفسيره بقوله:

((واعلم أن هذه الوجوه ليست وجوها قوية في دفع الروايات الواردة في اللغات، وذلك لأن حمزة أحد القراء السبعة، والظاهر أنه لم يأت بهذه القراءة من عند نفسه، بل رواها عن رسول الله (ص)، وذلك يوجب القطع بصحة هذه اللغة، والقياس يتضاءل عند السماع لا سيما بمثل هذه الأقيسة التي هي أوهن من بيت العنكبوت، وأيضاً فلهذه القراءة وجهان: أحدهما: أنها على تقدير تكرير الجار، كأنه قيل (تساءلون به وبالأرحام). وثانيها: أنه ورد ذلك في الشعر وأنشد سيبويه في ذلك:

فاليوم قد بت تهجونا وتشتمنا فاذهب فما بك والأيام من عجب

وأنشد أيضاً:

نعلق في مثل السواري سيوفنا وما بينها والكعب غوط نفانف

والعجب من هؤلاء النحاة أنهم يستحسنون إثبات هذه اللغة بهاذين البيتين المجهولين ولا يستحسنون إثباتها بقراءة حمزة ومجاهد، مع أنهما كانا من أكابر علماء السلف في علم القرآن. واحتج الزجاج على فساد هذه القراءة من جهة المعنى بقوله (ص): "لا تحلفوا بآبائكم" فإذا عطفت الأرحام على المكنى عن اسم الله اقتضى ذلك جواز الحلف بالأرحام، ويمكن الجواب عنه بأن هذا حكاية عن فعل كانوا يفعلونه في الجاهلية لأنهم كانوا يقولون: أسألك بالله والرحم، وحكاية هذا الفعل عنهم في الماضي لا تنافي ورود النهي عنه في المستقبل، وأيضاً

فالحديث نهى عن الحلف بالآباء فقط، وهنا ليس كذلك، بل هو حلف بالله أولاً، ثم يقرن به بعده ذكر الرحم، فهذا لا ينافي مدلول ذلك الحديث، فهذا جملة الكلام في قراءة قوله:

﴿والأرحام﴾ بالجر. أما قراءته بالنصب ففيها وجهان: الأول: وهو اختيار أبي علي الفارسي وعلي بن عيسى أنه عطف على موضع الجار والمجرور كقوله:

فلسنا بالجبال ولا الحديدا ... والثاني : وهو قول أكثر المفسرين: أن التقدير: واتقوا الأرحام أن تقطعوها، وهو قول مجاهد وقتادة والسدي والضحاك وابن زيد والفراء والزجاج، وعلى هذا الوجه فنصب الأرحام بالعطف على قوله: ﴿الله﴾ أي: اتقوا الله واتقوا الأرحام، أي اتقوا حق الأرحام فصلوها ولا تقطعوها...)) ا هـ .

مناقشة: القول إن هذه الروايات السبع أو العشر أو الأكثر من ذلك بكثير ـ وردتْ عن رسول الله (ص)، فهذا من التجني، بل الروايات اختلفت؛ لأن القرآن غير مشكل ولا منقوط، فمثلاً قرأ ابن مسعود: (فتثبتوا)، بينما هي في القرآن (فتبينوا)، وحينما نرجع الكلمة إلى أصلها الخام، تكون هكذا: (فسسوا) فهي قابلة للقراءَتينِ، فيمكن أن نجعل الثاء باء أو العكس، أو الباء ياء أو العكس أو التاء نون أو العكس... وكما قرأ بعضهم (خليقة) بدل (خليفة)، و (بُشْراً) بدل (نُشُراً).... إلخ.

أما المنع، حتى لا يصح الحلف بالأرحام، فالحلف يصح ما دام الله نفسه حلف بمخلوقاته. والله، كما أن أحمد بن حنبل في مسنده أقر الحلف بالنبي (ص).

لا مانع أن يقول الشخص لصديقه: (وحياتك) أو ما شاكلها من الكلمات. وهي من الكلمات الودية، وليس التألهية!!.

الترتيب حسب المعنى لا العمل

لقد رتب النحاة الأفعال والأسماء والحروف حسب العمل لا المعنى، فاختلط الفعل مع الاسم مع الحرف، واجتمع السالب والموجب في نفس المكان!.

جمعوا (أيٌّ) وهي اسم بآتْفاق النحاة، و(إنْ) وهي حرف بآتْفاقهم؛ لأن عملهما ـ كما يقولون ـ جزم فعل الشرط وجوابه.

وجمعوا (كانَ محمدٌ جميلاً) فـ(كان) فعل موجب؛ لأنه يثبت لمحمد الجمال.. و(ليس محمدٌ بخيلاً) فـ(ليس) فعلٌ مشترك سالب؛ لأنه ينفي البخل عن محمد.

كان اهتمام النحاة ليس المعنى، بل العمل ـ المزعوم ـ وما عدا ذلك هو عندهم أمر عرضي، لا قيمة له!. مع أن المعنى هو الأساس، وما عداه هو العرضي.

وقد سمعتُ من أحد المدرسين للنحو قوله: "إن النحاة يهتمون باللفظ، واللغويين يهتمون بالمعنى". وهذا الكلام صحيح إلى حد ما، لكن النحاة أيضاً يهتمون بالمعنى، وما الإعراب، إلا لتوضيح اللفظ؛ كي يُعرف المعنى، فليس اهتمامهم باللفظ البحت، فليس النحوي موسيقاراً!..

نعم النحاة قدموا اللفظ على المعنى من خلال تخريجاتهم المتكلفة، التي أغرقت المعنى بالسيل الجارف من الألفاظ الفلسفية المبالغ فيها.

لقد تم جر النحو إلى علم الفلسفة بشكل مفرط في العصر العباسي، بعد أن استولوا على الكتب اليونانية والفارسية... وترجموها، فتلقفها النحاةُ والفقهاء، وعلى حطام هذه الفلسفة، بني النحو الجديد، وعلم الكلام وعلم الأصول... وحتى في الفقه حشروها. ولا يعني هذا أن الفلسفة سيئة، بل على العكس، لكن لا يجب أن نضعها في غير محلها.

أمثلة تطبيقية متفرقة

لي أعناق النصوص وفقاً للحركات.. اهتم النحاة بالحركات أكثر من المعنى، وجعلوها هي المرجعية لفهم النص، فإذا وجدوا حركة على آخر كلمة استخرجوا معناها وفقاً للحركة، حتى لو كان هذا المعنى متكلفاً ومشوشاً!!، ثم إنهم اهتموا أحياناً يضعون عناوين للجُمل وفقاً للترتيب وليس المعنى، رغم أن معنا ها واحد.. فمثلاً: (جاءَ محمدٌ)، قالوا عنها أنها جملة فعلية؛ لأنها ابتدأت بفاعل، وأعربوها هكذا: جاء، فعل ماض مبني على الفتح.. محمد فاعل مرفوع، وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره.. أما جملة (محمدٌ جاءَ) فقالوا أنها اسمية، وأعربوها: محمدٌ فاعل مرفوع، وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخرة.. جاءَ، فعل ماض مبني على الفتح. والفاعل ضمير مستتر جوازاً تقديره "هو" يعود على محمد.. مع أن المعنى واحد، فالمسألة لا تعدو (2 + 1 = 3) و (1 + 2 = 3)، فالنتيجة واحدة.. فقط الاختلاف في الترتيب..

والأبسط أن عن كلا الجملتين أنهما فعليتان؛ لأن كليهما يحمل فعلاً، ولا يهم التقديم والتأخير، ما دامت النتيجة واحدة والمعنى واحد. ثم إن قولهم أن فاعل الفعل ضمير مستتر فيه تكلف؛ لأن الضمير نائب عن الاسم، وحينما نظهره، تكون الجملة: (محمدٌ جاءَ محمدٌ!).. فما الداعي لكل هذا التكلف؟!.

وكثير من الأمور التي يقولها النحاة تخالف الواقع، فمثلاً حينما تأمر أخاك، وتقول له: (اَذهبْ عني)، لكنه امتنع عن الذهاب.. يقولون: اذهب فعل أمر مبني على السكون؛ لأنه صحيح الآخر.. والفاعل ضمير مستتر وجوباً تقديره " أنتَ".

والحقيقة، إن هذا مخالف للواقع؛ لأن المأمور لم يلبي الأمر؛ لأنك لو ذهبت لبناءٍ، ليبني لك حجرة، لكنه لم يفعل.. هل تقول عنه: إنه بنى الحجرة، وتعطيه أجراً؟!!.

فكيف أصبح الذي لم يفعل فاعلاً؟!.. هذا الأمر ضد الواقع، وضد العُرف، وضد علم الفيزياء!!. إنه من كيس النحاة، وكفى!!.. إنه فاعل خيالي، وهمي، ذهني، مفترض!!.. في الحقيقة أن ما يسمى "فعل أمر" في فعليته كثير من التساؤلات، فهو ليس فعلاً صريحاً في الفعلية!.

مثال من نوع آخر.

(جاءَ محمدٌ مسرعاً). قالوا: "جاء" فعل... "محمد" فاعل... "مسرعاً" حال... وهذا لا غبار عليه.. وعندهم هذه الجملة صحيحة.. لكن انظر الجملة المماثلة لها: (جاء رجلٌ مسرعاً).. فهذه الجملة خاطئة؛ لأن الحال لا تأتي بعد النكرات، وعليك أن تقول: (جاءَ رجلٌ مسرعٌ)، فتكون صفة، وليس حال!!.. ((مسكين هذا الغير معروف (النكرة)، حتى اللغة تحاربه، وليس السلطة!!).. مع أني لو كنت في مكان لا يعرف الناس فيه محمداً، أو حتى مكان فيه محمدون متعددون ـ سيصبح "محمد" نكرة!.. فالتعريف نسبي، فلو ضربت مثالاً، وقلت: (جاءَ حمدون مسرعاً)، وأنا لا أعرف "المحروس حمدون".. هل أقول عنه (جاء حمدون مسرعاً) أم (جاء حمدون مسرعٌ)؟!.. والمفروض أن يكون الأمر حسب طبيعة الحال، وليس الأصل المفترض؛ لأن العلم يكون نكرة عند من لا يعرفه؛ لذلك تجد بعض الناس يطالبك بالتعريف حينما تقول: (جاء محمد). فيقول لك: (مَن محمد؟) أو بلهجته العامية: (منهو هذا محمد؟).. فتقول: (محمد بن علي.. صاحب محل الكهربائيات في السوق الكبير في الشطرة.. الشاب الأبيض...). إن العَلَم "نكرة" بدرجة ممتاز عند من لا يعرفه!!.. فهو "عَلَم" نسبي، وليس مطلقاً، ولا يجب علينا أن نجعله عَلَماً مطلقاً؛ لأن هذا الأمر يخالف الواقع والحقيقة والمطلوب.

إن اسم العلم المشترك المفرد، هو علم في نطاق محدود؛ لأنك لو ناديت يا علي، في مكان عام، فسوف لا أحد يرد عليك من الأشخاص الذين بهذا الاسم؛ لعدم تعين المطلوب. ربما يعرفه

صديقك؛ لأنه معك وافترق، أو التفت فرآك فعلم أنك لا تقصد غيره؛ لأنك صديقه أو لاعتبارات أخرى.

مثال آخر..

جعلوا اسم الإشارة عَلَماً مطلقاً، فحينما تقول: (هذا رجل)، فأنتَ تشير إلى معين، إذن هو معرفة، وليس نكرةً.. وهذا من المعضلات والمشكلات؛ لأن اسم الإشارة يعتمد الخطاب الصوتي ـ ربما ترافقه إشارة يد ـ المباشر الموجه من المتكلم المشير إلى المستمع الحاضر.. فماذا نقول حينما يتحول ذلك الكلام إلى حكاية أو كتابة في صحف يطلع عليها بعض الناس بعد مئات السنين؟!.. ألم أقل لكم: إن اللغة العربية لغة خطاب مباشر؟. إنها لغة محكية، فتم تحويلها إلى كتابية تعسفاً!!. ((الجود من الموجود!)).

والحقيقة أن اسم الإشارة معرفة للمخاطب المباشر، ونكرة إن وضعت في كتاب؛ لأن المشار إليه غائب.

وهكذا تصبح الحركة هي الحاكم، حتى وإن بعثرت المعنى بطريقة فجّة وممجوجة.. وكم كنتُ أصاب بالذهول والدهشة من تصرف النحاة، فإذا كان مدار الكلام "دلالةً" على الحركات، فلماذا لا يرسمونها بشكل مساو للحروف حجماً، أو على الأقل يلتزمون برسمها دائماً؟!.. أليس هي القائد والرائد والذائد؟!.. مع أن الحركات لا تقتصر على النحو، بل على الصرف.. ومع أن عددها ثلاث، فليس بالعدد، الذي يثقل الكاهل ويكسر الكاحل!!.

والأغرب من ذلك أنهم لم ينقطوا الحرف، إلا بعد ردح من الزمن، بل كان بعض الفقهاء والمحدثين، يعارض التنقيط، ويسميه (الإعجام). وكانت حجة معارضته، هي حتى لا يخالف السلف!!.. أما التنقيط والترقيم، الذي لا غنى عنه، وبدونه تصبح الجمل سائبة ـ فلم يكن له وجود، حتى جاء الأتراك ووضعوه، وقد استوردوه من اللغات الأخرى.

يقول ابن خلدون في مقدمته:

((وانظر ما وقع لأجل ذلك في رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة بخطوطهم، وكانت غير مستحكمة في الإجادة، فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته أقيسة رسوم صناعة الخط عند أهلها. ثم اقتفى التابعون من السلف رسمهم فيها تبركاً بما رسمه أصحاب رسول الله (ص)، وخير الخلق من بعده المتلقون لوحيه من كتاب الله وكلامه، كما يقتفى لهذا العهد خط ولي أو عالم تبركاً، ويتبع رسمه خطأ أو صواباً. وأين نسبة ذلك من الصحابة فيما كتبوه، فاتبع ذلك وأثبت رسماً، ونبه العلماء بالرسم على مواضعه.

ولا تلتفتن في ذلك إلى ما يزعمه بعض المغفلين من أنهم كانوا محكمين لصناعة الخط، وأن ما يتخيل من مخالفة خطوطهم أصول الرسم ليس كما يتخيل، بل لكلها وجه. ويقولون في مثل زيادة الألف في لا أذبحنه: إنه تنبيه على أن الذبح لم يقع، وفي زيادة الياء في بأييد إنه تنبيه على كمال القدرة الربانية، وأمثال ذلك ممّا لا أصل له إلا التحكم المحض. وما حملهم على ذلك إلا اعتقادهم أن في ذلك تنزيهاً للصحابة عن توهم النقص في قلة إجادة الخط. وحسبوا أن الخط كمال، فنزهوهم عن نقصه، ونسبوا إليهم الكمال بإجادته، وطلبوا تعليل ما خالف الإجادة من رسمه، وذلك ليس بصحيح. واعلم أن الخط ليس بكمال في حقهم، إذ الخط من جملة الصنائع المدنية المعاشية كما رأيته فيما مر. والكمال في الصنائع إضافي، وليس بكمال مطلق، إذ لا يعود نقصه على الذات في الدين ولا في الخلال، وإنما يعود على أسباب المعاش، وبحسب العمران والتعاون عليه لأجل دلالته على ما في النفوس. وقد كان النبي (ص) أمياً، وكان ذلك كمالاً في حقه، وبالنسبة إلى مقامه، لشرفه وتنزهه عن الصنائع العملية، التي هي أسباب المعاش والعمران كلها. وليست الأمية كمالاً في حقنا نحن، إذ هو منقطع إلى ربه، ونحن متعاونون على الحياة الدنيا، شأن الصنائع كلها، حتى العلوم الاصطلاحية. فإن الكمال في حقه هو تنزهه عنها جملة بخلافنا)) إ هـ.

ما قاله ابن خلدون، هو عين الصواب ـ طبعاً نخالفه في أمية الرسول "ص" ـ ولا زال بعض كُتّاب السلفية يصدرون الكتب، التي تدافع عن الرسم القديم، وتجعله توقيفياً وإعجازياً، ويضعون التفسيرات والتبريرات، التي لا يقتنع بها أبسط إنسان..

((... غير أنه حين يذكر القرآن الكريم سيدنا أبا بكر صاحب رسول الله (ص). تأتي كلمة (لصحبه) بدون ألف. لتبيين مدى الالتصاق بينهما وتوضح الصحبة الحقيقية في الرفقة والإيمان. ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة/ 40][52].

ونفس الكلمة (لصحبه) التي بدون ألف، بررها بطريقة مختلفة، وغريبة!.. ﴿. . . فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ. . .﴾ [الكهف/ 34]. فقال: ((جاءت كلمة (لصحبه) بدون ألف وسطية لتوحي لمالك الجنتين من أن صاحبه ملتصق به في الرفقة والإيمان...)).

وأنا أتساءل لماذا لا يكون الحكم والتبرير في الآية الـ(34) من سورة الكهف، ينطبق على الآية الـ(40) من سورة التوبة؟!.

---

[52] إعجاز رسم القرآن وإعجاز التلاوة ـ محمد شملول.. ص/67.

هكذا يقع في المتاهات، من يريد أن يصنع من الأخطاء إعجازاً!.. الرسم العثماني، هو نتاج بشري، يعتريه النقص الكثير، ولم ينزل من الله؛ ولذلك طوره العلماء بالحركات والحروف الصغيرة والنقاط والعلامات، كما أنه خضع للتطوير التوضيحي والتجميلي.. فلو أرجعناه إلى الرسم الخام الأصلي، لما قرأه صاحبنا، الذي يصفه بأنه إعجاز!!.

مثل هؤلاء، كمن يصف العين العوراء بأنها غاية في الجمال والإعجاز، مع أنها تعرضت لحادث "مؤسف"، ولم يصنعها الله بهذه الطريقة!!.

إن الاعتقاد بأن كل ما يصدر من السلف، هو من المعجزات ـ هو كارثة كبرى فُجعت بها الأمة الإسلامية!!؛ لأن السلف لم يتفقوا فيما بينهم، حتى في أبسط الأمور، بل خطأ بعضهم البعض، وكفّر بعضهم البعض، وقتل بعضهم البعض، وكان بعضهم فاسقاً شارباً للخمر وسفّاكاً للدماء، وبعضهم أراد تحريف القرآن!!.

كما أن الرسم القرآن ليس رسماً واحداً، بل رسوم مختلفة في الشكل، وحتى في الحذف والإثبات بالنسبة للحروف.

لقد تتبعتُ القرآن منذ زمن بعيد، وحاولتُ حصر نظام الهمزة أو حذف الحروف في قواعد تيسيرية في كتابي (الإملاء الاستدلالي المقارن)، لكن هذه القواعد كثيرة؛ لأن من الصعب أن نضع قاعدة عامة لرسم القرآن الكريم؛ لأنه مكتوب بطريقة لا تخضع لقاعدة متقنة.. هذه هي الحقيقة، فمن كتب القرآن الكريم ليس لديه خبرة في الكتابة والرسم. وبسبب هذا الرسم الغير متقن تعددت القراءات وتكثرت.

راجعتُ بعض المخطوطات القديمة للقرآن الكريم، ولا أخفيكم خبراً، فلم أستطع قراءة (90%) من الكلمات!!؛ لأن الكلمات مرسومة بطريقة بدائية، ومتداخلة الحروف، بحيث لا تميز أن هذا الحرف، هل هو للكلمة السابق، أم اللاحقة.

وأغلب الكلمات المدمجة التي نستخدمها في كتابتنا لحد الآن، هي من الرسم القرآني، وكذلك الكلمات محذوفة بعض الحروف، كأسماء الإشارة.. كما أن الحروف الزائدة أيضاً مصدرها الرسم القرآني الكريم. كالألف في كلمة (مِائة).. لقد أفلتت من مِقصّ الرقيب، وسارت مع نظام السلف الحبيب!، لكنها بالطبع قليلة لا تتطلب جهداً لحفظها.

فذلكات لا تصحح نطقاً!!

حشر النحاة بعض الفذلكات التي لا تصحح نطقاً، ولا تفيد معنى، بل لمجرد تقنين قاعدة، حتى وإن كانت على حساب المعنى وإرباك القارئ!.

كمتعلق الجار والمجرور بـ(كائن) أو (موجود)، وتقدير ضمير شأن بعد (أن) بعد أن وجدوا ما بعدها مرفوعاً. وهذا يخالف قاعدتهم، فقدروا ضمير شأن محذوف؛ كي تصح القاعدة، مع أن هذا التكلف والتعسف لا يصح النطق وليس له علاقة فيه.

(محمدٌ في الدار).. قال النحاة البصريون: إن محمداً مبتدأ... و" في الدار" جار ومجرور متعلق بخبر تقدير، "موجود".

مع أن الكلام يصح أن يكون الجار والمجرور نفسيهما خبراً لـ(محمد)، لكنهم أصروا [البصريون] على الابتكار التقديري!.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه/ 89]. فكلمة (يرجع) مرفوعة رغم تصدرها أداة نصب (ألّا) المكونة من (أن) المدغمة في (لا). فأراد النحاة مخرجاً، فاخترعوا تقدير ضمير شأن، فأصبح المعنى (أنه لا يرجعُ...).

وهذا التقدير فيه تكلف واضح.. والظاهر أن الحرف (أن) هو مجرد أداة ربطية لا تأثير لها في الرفع أو النصب.

في كثير من الأمور يعمد النحاة إلى تقدير كلمة بدون دليل، بل لمجرد تصحيح قاعدة وضعوها. ذكر أحد النحاة أن (إلا) تحل مكان الفعل (أستثني) المقدر، فرد عليه الخليفة العباسي الذي كان يناقشه، بقوله: ولمَ لا يكون الفعل المقدر (امتنع)؟!!.

حينما رأى النحاة نصب الاسم الواقع بعد (إلا)، نحو: (جاء القومُ إلا زيداً) افترضوا فعلاً مقدراً يحل محل (إلا)!!. وهذه هي نظرية العامل، والنظام المعياري، والتقنين الأرسطي. وهي نظرية ـ بلا شك ـ لا تستقيم مع كلام اجتماعي.

والأفضل أن يقال: إن الاسم بعد (إلا) يكون مرفوعاً أو منصوباً.. وبهذا نكون قد نهجنا منهجاً وصفياً خالياً من التعقيد والإبهام، والتقديرات، التي لا تجلب سوى الملل!.

لقد ذكر العلماء أن المنصوبات، تكون مفعولات أو أحوالاً أو أخبار كان وأخواتها... لكنهم لم يتجرؤوا أن يقولوا إن الاسم يأتي منصوباً بعد (إلا) بدون أن يقدروا أفعالاً ناصبة له!.

فعل مقدر لا دليل عليه، إلا وهم النحاة!!.. لو قال شخص (كتاب) وسكت، فعرفنا أن هذا خبر عن مبتدأ إشاري محذوف، فالمتكلم حذف المبتدأ اعتماداً على الإشارة، لكن أنْ يقال إنّ الاسم بعد (إلا) منصوب بفعل مقدر. ما الدليل عليه؟!!.

حقيقة أن كلام العرب من الصعب أن توضع له قواعد تخضعه اخضاعاً تاماً؛ لأنه جامح ومتشعب بطريقة تشل العقول!؛ لذلك تجد النحاة عمدوا للفرضيات والتقديرات والتأويلات؛ حتى يذللوا هذا الجامح!.

إن الكلام هو وسيلة لإيصال فكرة أو معلومة أو مشاعر أو أحاسيس... فإذا أدى الغرض المنشود، ولو نسبياً ـ فلا مشكلة في الحذف أو نصب المرفوع...

إن العرب يعمدون إلى لفظ الحركة سواء كانت ضمة أو كسرة أو فتحة في أواخر بعض الكلمات ليس للدلالة على فاعليتها أو مفعوليتها أو إضافتها، بل لسلاسة وانسياب الكلام. وخصوصاً الفتحة، فهي الحركة الخفيفة، لكن النحاة جعلوا من الحركة معياراً أينما وجدت، حتى إن خالفت المعنى، الذي وضعت لتبيينه!.

كما أن هناك تغييرات لفظية لا تغير المعنى في اللغة العربية.. مثلاً الرفع والجزم والنصب للفعل المضارع: (لا يتغيرُ) (لن يتغيرَ) (لم يتغيرْ)، فهذه التغييرات التي طرأت على الفعل المضارع لا تغير المعنى. أما التغيير المعنوي، كالتغيير الزمني من نفي المستقبل أو الماضي أو الزمنين معاً، فهو قد حصل بسبب الأدوات (لا.. لن.. لم).

النحاة والحروف

عد بعض النحاة الحروف (28) حرفاً مهملين حرف الألف باعتباره معتل أو منقلب عن الواو والياء. اعتبروا الحرفينِ الآخرين ـ مع الألف ـ أقل رتبة من بقية الحروف.. وهذا خطأ فادح من المفترض أن لا يقعوا فيه ـ النحاة ـ لأن الحروف التي يسمونها حروفاً أو أحرف علة، هي الأساس، كما أنّ الألفَ حرفٌ رسميّ، بل هو الأساس، فهو أكثر أهمية من الحروف الصامتة.. أكثر أهمية بكثير ـ مثلاً ـ من حرف "الظاء" الذي لا يوجد، إلا في كلمات قليلة، حتى أن البعض استطاع أن يحصرها كلها، أو جلها في قصيدة.

حينما رأى النحاة الألف يتغير إلى الواو أو الياء، كما في: (قَال) بعد ضم ما قبل الألف تصبح: (قُول[53])، وعند كسر ما قبل الألف تصبح: (قِيل)، حكموا بأن حرف الألف غير أصيل؛ لأنه عرضة للتغيير. وهذا وهم و سوء فهم!؛ لأن حرف الألف لم يقلب إلى واو أو ياء، بل تم استبداله بواو أو ياء؛ لأن حرف الألف لا تسبقه ضمة أو كسرة، فهو معهما على طرفي نقيض. حتى إذا فرضنا أنه ينقلب إلى واو أو ياء، فهذا يخص الأفعال وليس كل الكلمات، فهو أمر جزئي.

جعلوا ـ النحاة ـ حرفَ الألف ليس حرفاً، حتى قالوا عنه: حركة مطولة! مع أنه لا يوجد حرف يشغل مساحة في الكلام أكثر منه على الإطلاق، فهو المتسيّد بلا منازع، وحاضر إذا غاب الآخرون!.. اِذهبْ إلى القرآن ـ مثلاً ـ فلن تجد أكثر من حرف الألف حضوراً.

كان عصر اهمال حروف اللين، قد سبق العصر الذي ترعرع فيه علم النحو ونما، حتى أنهم أهملوا حروف اللين كتابةً، وخصوصاً الألف، فكانت عندهم بمثابة الحركة أو النقطة الصامتة فوق الحرف!. ويبدو أن هذه "الثقافة" قد استوردها العرب من بعض اللغات السامية.

وقد خلط النحاة بين الألف والهمزة، ولا زلنا على نهجهم الخاطئ أو المتسامح أكثر من اللازم، فحينما نكتب كلمة تبدأ بهمزة نسميها: "ألفاً". ربما هذا الخلط ناتج عن الرسم فهم غلبوا الرسم على اللفظ، فالهمزة تكتب نفس الألف، أو الهمزة ترتقي الألف كرسياً لها. ونحنُ نقول: ـ مثلاً ـ الفتحة أو الضمة أو الكسرة فوق: الباء، أو التاء، أو الثاء... مع أن هذا الأمر يحصل في الكتابة. أما في اللفظ فالحركات تقع بعد الحرف لا فوقه. وهكذا تجدها في اللغات التي ترسم الحركات بنفس حجم الحروف.

أهمل العربُ (الحركات) في الكتابة، رَغم أنها موجودة لفظاً، والمفترض أن تكون الكتابة تجسيداً مطابقاً للفظ.

أهملوا (الحركات) أو الحروف الصغيرة نطقاً في الكتابة، وعدوها شيئاً ليس له قيمة!، مع أنها من تلازم الكلام ولا تنفك عنه أبداً، فهي ذات وليس صفة، فإذا كانت ليس كذلك، فنتحدى أيَّ شخصٍ أن يلفظ ثلاثة حروف بغير حركة!!.

لم يلتفتُ إليها ـ الحركات ـ إلا بعد أن أحسوا أن ذلك فيه خطر على القرآن الكريم، فلجأوا إلى كتابتها، وكتابة "حروف العلة" التي أهملها الكتاب الأوائل، وأضافوا الحروف المضعفة، ورمزوا

---

[53] هذه الكلمة للمثال فقط.

لها بعلامة شدة ـ سين صغيرة مقطوعة ـ لأن الكتاب الأوائل يهملون كل حرف ضعيف نطقاً بالإضافة إلى الحروف الثلاثة ـ الألف، الواو، الياء ـ مع أنها قوية.

الحركات لا تقتصر على الدلالة النحوية، بل على الصرفية، مع كونها جزءاً لا يتجزأ من بِنية الكلام، واهمالها أو عدم الالتفات لها أمر غير حكيم!.

كما أن قوة صوت حروف اللين أكثر وضوحاً من غيرها من الحروف الساكنة.

ولقد طور القراء نظاماً "يطلق عليه الإدغام الكبير" وهو الادغام في كلمتين، لكن في السياق فقط مع الاحتفاظ بالكتابة لكل كلمة على حدة، وهو نحو: (اركب معنا) تلفظ هكذا: (اركمْعنا). وهذا موجود كلام العرب، لكن القرّاء بالغوا فيه، وهو قليل بخلاف التشديد في حرفين متماثلينِ أو شبه متماثلينِ في المخرج داخل كلمة واحد، نحو (عبّاس) وأصلها (عبْبَاس). وقد كتبها القدماء بباء واحدة؛ لأنهم يهملون الحرف الضعيف صوتياً ويعاملونه كحركة!.

والادغام الكبير يخلط الوحدات الصوتية، ويجعلها وحدة واحدة، فيضيع الأصل ويتحول إلى لغزٍ مبهم!.

ولقد عامل الكتاب "الإدغام الكبير" ككلمة واحدة! وفقاً للفظ الطارئ، فمثلاً كتبوا (لكي لا) هكذا (لكيلا) دمج دون حذف، لكنهم كتبوا (إنْ لا) هكذا: (إلّا) أعملوا فيهما الدمج والحذف، فأصبحت الكلمتان وكأنهما كلمة واحدة.. والمشكلة أصبحنا لا نفرق بينهما وبين كلمة (إلّا) التي هي للاستثناء!

وقد رسموا هذا النوع في القرآن بطريقة تنم عن عدم دقة!.. ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا . . . ﴾ [التوبة/39].

لولا نصب الفعل بعدها، لما عرفنا أنها (إن لا). أما من لا يعرف علم النحو، فبلا شك يتصورها (إلّا). وكتبوا (أنْ لا) هكذا: (ألّا) و(عنْ مَا) كتبوها (عمَّا). مستخدمين الدمج والقلب والحذف. فالدمج؛ لأنهم دمجوا كلمتين (عن + ما). والقلب؛ لأنهم قلبوا النون من (عن) إلى ميم. والحذف فقد حذفوا ميم (عن) المقلوبة. وبعد أن تطور الإملاء أصبحنا نرمز لها بشدة.

وهذا في اللهجة العامية كثير، فهم يدمجون كلمتين لفظاً ويعطونهما حكم الكلمة الواحدة، فمثلاً: (على مَن) جعلوها (علي مَن)، فكتبوها (عليمن). خصوصاً أنهم يلفظون الياء ـ هنا ـ لينة كالفتحة، أو عبارة عن ياء ممزوجة بألف. بل في بعض الكلمات أصبح الدمج لزاماً، كما في: (أيشْ صار) تصرفوا فيهما، فأصبحتا ـ الكلمتين ـ كلمة واحدة: (اشصار)، بل بعضهم

يلفظها؛ لأجل الخفة: (اصّار). فلم يبقَ من (أيش)، إلا همزة وصل، وصاد مضعفة ملتصقة بالصاد التابعة لـ(صار). وهنا لا يمكن أن نكتبها (اصْ صَار)؛ لأن (أيش) لم يبقَ منها شيء مستقل يدل عليها.

وقد أصبحت اللهجة الشعبية لها نظام خاص في الإملاء، فهم يعاملون الكلمة كما تلفظ ولا يرجعونها للأصل، فمثلاً (يا محمد) يكتبونها (يمحمد)؛ لأن اللهجة العامية العراقية غالباً ما تحذف الألف من (يا) النداء للتخفيف... كما أنهم يكتبون الألف في آخر الكلمة هاء. خصوصاً في الشعر (شعر الأبو ذية).

مـرّهْ اتـْحيا روحيْ ومـرهْ مَيته

وخبزي كسّر سنوني من رميته

غـزالي ابيْوم شِفته وْمِـن رميته

طـلعْ مَـسعورْ واتْهـجّم عليه!

فكلمة (عَلَيَّه) حتى في العامية لا تلفظ هكذا، بل (عليَّ) بألف مخففة أو فتحة، لكنها لا تحذف أثناء الوقوف عليها؛ لأنها أصلية في الكلمة.

الحروف اللفظية.

من المعروف أن الكتابة العربية، كتابة لفظية. أي أن مقابل كل مقطع صوتي حرفي، رمز كتابي.. وبهذه الطريقة التركيبية تتكون الكلمات في الرسم الكتابي. وهذا النظام تتبعه كل اللغات تقريباً، إلا أن الصينية ـ مثلاً ـ تتبع النظام الصوري، وهو نظام معقد ومتكثر، يعتمد التعبير عن الشيء سواء كان مادياً أو معنوياً ـ بالرسم التعبيري. وهو نظام فكري، وليس دقياً، فلو رمز للأسد برمز معين، فنستطيع أن نقرأ هذه الرسمة الفكرية أنها تقصد الأسد أو الليث أو الضرغام... إلخ. بخلاف لو كتبتها (الاسد) فلا تقرأ، إلا بهذا اللفظ.

ويستخدم هذا النظام الفكري في العلامات المرورية والتحذيرية، وفي الرياضيات والفيزياء، وفي الأجهزة الإلكترونية... إلخ.

الإنسان يعبر عن المعاني بالألفاظ، وعن الألفاظ بالكتابة. فالأصل هي المعاني. والألفاظ تعبير تقريبي مسموع لها. والكتابة تجسيد للألفاظ مرئي وثابت.. والكتابة لا غنى عنها أبداً، فلولاها، لما وَصَلَنَا القرآنُ الكريم، ولا التراث... وقد أشاد القرآن الكريم بالكتابة (القلم).

﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم/1].. ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ* ﴾ [العلق/ 3 ـ 4].

لكن هل الألفاظ هي انعكاس تام وكامل للمعاني؟!.. في الحقيقة لا، ليس انعكاساً تاماً أو كاملاً، بل تقريبي؛ لأننا لا نستطيع أن نصور المعاني، كما هي سواء كانت مادية أو معنوية. فأنت حينما ترى شخصاً ما ـ مثلاً ـ ونريد أن نصفه لشخص آخر، فإننا نقول: رأينا شخصاً طويلاً أبيض البشرة جميل الوجه، عيناه سمراوان كبيرتان، وأنفه دقيق، ملتحٍ... وهذا الأوصاف لا تمثل الرؤيا العينية، بل هي تقريب.

وحينما تحب شخصاً ما، وتريد أن توصل الفكرة لشخص آخر، تقول له: أنا أحب فلان حباً كثيراً. وهذا يمثل فكرة تقريبية، فالحب لا يكال ولا يوزن، وهو شيء ذهني وهمي لا وجود له في الخارج.

كما أن الكتابة لا تعكس الألفاظ بشكل تام، فلو كتب شخص رسالة خطية يعبر عن مشاعره وحبه وآلامه، ثم وجدت بعد مئة عام!، فإن القارئ يقرأها كلمات تعبر بطريقة ضعيفة عمّا أراده الكاتب؛ لأن القارئ لم يسمع صوت صاحب الرسالة؛ لأن الصوت وما يحتويه من نبرات ولحن وارتفاع وانخفاض وغلظة ورقة وبكاء أو ضحك ـ أبلغ من الكتابة تعبيراً عن الأحاسيس والمشاعر...

كما أن الصوت مع حركات الجسد، هو الأكثر في فهم ما يريده المتكلم ورسم صورة قريبة جداً عما في داخله؛ لأنك تتلقى المعلومات السمعية البصرية، التي تعبر عمّا يريده المتكلم. فإنك تسمع صوت المتكلم وما يحتويه من تغييرات، بالإضافة إلى الحركات الجسدية وتغيير تعابير الوجه من حزن وفرح. وحركات العيون إن كانت باكية أو ضاحكة...إلخ.

الحروف في اللهجات العربية

إن اللهجات العربية متعددة وكثيرة، حتى اللغة الفصحى التي تستخدم في الكتابة، هي لهجة من اللهجات القديمة في شبه الجزيرة العربية.

أما في عصرنا الحاضر، فقد تعددت اللهجات كثيراً في الدول العربية، والتي فيها سكان يتكلمون العربية، فمثلاً في العراق هناك عدة لهجات، ربما تصل إلى العشر، وأغلبها تتكلم

بـ(31) حرفاً، وهي الحروف المستخدمة في الفصحى باستثناء حرف الضاد (ض) بالإضافة إلى الحرفين (گ) الجيم المصرية.. و(چ) القريب، وهو قريب من الجيم العربية. ويستخدم بدل الكاف أحياناً في اللهجة العراقية الجنوبية، فمثلاً (كثير)، يلفظونها (چثير). وأحياناً بدل القاف، فمثلاً (العقيلي)، يلفظونها (العگيلي).

أما الضاد، فلا تكاد تذكر في اللهجات العربية في العصر الحاضر، فقد تم استبدالها بحرف الظاء (ظ).

ويضاف في بعض اللهجات العراقية والشامية حرفاً قريباً من الشين الممزوجة بالجيم، ويرمز له بالفارسية بحرف راء فوقه ثلاث نقاط (ژ).

أما في اللهجات اليمنية الشائعة، فيستبدلون حرف القاف بالكاف المعقودة (گ)، حتى في قراءتهم لآيات القرآن الكريم.. وهذه الطريقة ليست مستحدثة، بل لها جذور ضاربة في أعماق فروع اللغة العربية القديمة، فهذا الحرف من الحروف العربية الأصيلة.

وفي اللهجة المصرية الشائعة في القاهرة والإسكندرية... يبدلون حرف القاف، بالهمزة، وحرف الطاء يبدلونه بالتاء، وحرف الثاء يبدلونه بالسين، وحرف الجيم يبدلونه بالكاف ا"لأعجمية"[54] (گ)، وحرف الظاء يستبدلون بالزاي الممزوجة بالصاد، وحرف الذال يستبدلونه بالدال... ويقتصرون باللفظ على (23) حرفاً.

وفي بعض اللهجات الأردنية يستبدلون الذال بالظاء.. (هذا) يلفظونها (هاظا).

لقد تخلصت كل اللهجات المعاصرة من حرف الضاد، ويبدو أن هذا الحرف مرّ بمراحل من حيث تغير نطقه، كما يبدو أنه خاص ببعض اللهجات القديمة، وليس كلها. ويبدو أن حرف الضاد القديم كان صعب النطق، فلذا شاعت التسمية للغة العربية بآسْم لغة الضاد.

ويبدو أن حرف الضاد، هو مزيج بين الظاء والطاء، ويختلف نطقه عند مستخدميه، فمثلاً في عند العراقيين يختلف عن الشاميين...

---

[54] هذا مجرد وصف شائع، وإلا فهي عربية، وتسمى (الكاف المعقودة). وهي لهجة القدماء من تميم وأسد... قال شاعرُ بني تميم:

ولا أگُول لگِدر القوم گَد نضجت ولا أگول لباب الدار مَگفول

إن اللهجات القديمة وردت بها حتى قراءات القرآن الكريم، فمثلاً (الصراط)، قُرئت (السراط) و(الزراط)، و(الزراط) بتفخيم الزاي، أو مزجها بالصاد، كما يلفظها المصريون في كلمة ظالم (زالم). بل وردت في نفس القراءة الواحدة، مثل: (جرح) و(قرح)، و(ضنين) و(ظنين)[55].

وكانت بعض القبائل تلفظ (الحاء) عيناً، وأحياناً يستبدلون الكاف بالشين، فمثلاً: (ما عليك) يلفظونا (ما عليش)، والهمزة بالهاء (لأنك) تصبح (لهنك)، والحاء بالعين (حتى) تكون (عتى)، والهمزة بالعين (سأل) تصبح (سعل) ـ في بعض لهجات العراق ـ، واللام بالنون: (جعلنا) تصبح (جعنّا)، ولا زال بعض السوريين يقولون: (منيح) بدل (مليح)، والقاف بالغين: (قانون) تصبح (غانون) ـ في الأهواز ـ والجيم بالياء: (دجاج) تصبح (دياي) ـ في جنوب العراق والكويت ـ قلب الراء إلى غين، وهذا في اللهجة الموصلية، فمثلاً (عصفور) تصير: (عصفوغ)، و(نسيّر) تصير: (نسيّغ)، وقلب الراء إلى الواو، مثلاً (أربعة) تصير: (أوبعة).. واللهجة الموصلية متأثرة باللغة التركية بشكل بين وواضح، كما هي حال المغربية والجزائرية في اللغة الفرنسية.

حتى اللغة الفصحى المستخدمة حالياً لم تكن بعض حروفها تلفظ بنفس اللفظ القديم، الضاد، والقاف والطاء. لقد كان كثير من اللهجات غير مكتوبة، ولم تستخدم للكتابة، إلا لهجة ـ قيل لهجة قريش ـ أو لهجتين، بالإضافة إلى بعض المفردات من اللهجات الأخرى.

لقد ترك الباحثون والحكومات بعض اللهجات، واهتموا بلهجة خاصة أصبحت فيما بعد (الفصحى).. وقد نظَّر لها وأصل وفصل النحويونَ واللغويونَ، وبالغوا وحوروا وافترضوا... حتى كادوا يخرجونها من الواقع إلى الافتراض!؛ لأنّ كثيراً من أمثلتهم النحوية، أمثلة افتراضية، فهم يفترضون بعض الكلمات افتراضاً.. ففي شرح (ابن عقيل):

((..."فالتاء في جئتنا اسم؛ لأنه فاعل، وهو مبني؛ لأنه أشبه الحرف في الوضع في كونه على حرف واحد، وكذلك "نا" اسم؛ لأنها مفعول، وهو مبني، لشبهه بالحرف في الوضع في كونه على حرفين.

(والثاني) شبه الاسم له في المعنى، وهو قسمان: أحدهما ما أشبه حرفاً موجوداً، والثاني ما أشبه حرفاً غير موجود، فمثال الأول "متى" فإنها مبنية لشبهها الحرف، في المعنى، فإنها تستعمل للاستفهام، نحو "متى تقوم؟" وللشرط، نحو "متى تقم أقم" وفي الحالتين هي مشبهة لحرف موجود؛ لأنها في الاستفهام كالهمزة، وفي الشرط كإن، ومثال الثاني "هنا" فإنها مبنية لشبهها حرفاً كان ينبغي أن يوضع، فلم يوضع، وذلك لأن الإشارة معنى من المعاني، فحقها أن

---

[55] المعنى مختلف.. ضنين: بخيل.. وظنين: متهم. وبهذا يكون المعنى تخالفياً، وليس ترادفياً.

يوضع لها حرف يدل عليها، كما وضعوا للنفي "ما" وللنهي "لا" وللتمني "ليت" وللترجي "لعل" ونحو ذلك، فبنيت أسماء الإشارة لشبهها في المعنى حرفاً مقدراً)).

وكانت في اللغة العربية حروف غير التسعة والعشرين، وهي: (الباء المفخمة، والزاي المفخمة، والجيم شديد التعطيش، والكاف المعقودة...).

ويبدو أن بعض اللهجات القديمة كانت تمزج الألف بالواو والياء في كثير من الكلمات. وقد وردت هذه اللهجة في بعض القراءات القرآنية، وحتى في رواية حفص عن عاصم، كما في كلمة (مجراها) تلفظ (مجريها).

ويبدو أن كلمة (الصلاة، الزكاة، النجاة، مشكوة الربا...). والتي مكتوبة بالواو في القرآن، هكذا: (الصلوة، الزكوة، النجوة، مشكوة، الربو) ـ ألفها ممالة، نحو الواو، كما أن ـ مثل ـ كلمة (التوراة) ممالة نحو الياء؛ لأنها مكتوبة (التورية).

كما أن الهمزة في بعض اللهجات التي وردت بها بعض قراءات القرآن الكريم ـ لا تُنطق، إلا نادراً، فمثلاً كلمة (إسرائيل) تُلفظ (اسرايل)، (مؤمنين) تُلفظ (مومنين)، (جَاء) تُلفظ (جَا)، (علماء) تُلفظ (علماو)[56]...

ولا زالت بعض اللهجات في دولة العراق وغيرها من الدول العربية، تَلفظ: (مؤمنين) (مومنين)، و(مؤمن) (مومن)، و(علماء) (علما)، و(صفراء، حمراء، خضراء، زرقاء، بيضاء، سوداء...) (صفرا، حمرا، خضرا، زرقا، بيضا، سودا).

ذات وصفات الحروف.

إن الحروف العربية، التسعة والعشرون لها ذات وصفات، فالذات إذا تغيرت، فهذا يعني أن الحرف قد فقد ماهيته، فلو نطقنا حرف السين صاداً، يعني أن السين لم يعد موجوداً في الكلمة نهائياً، حتى وإن احتفظت الكلمة بمعناها: (بَسْطٌ) (بَصْطٌ).

لكن لو تغيرت صفته، فإنه يبقى، فهو بمثابة تغيير الثوب للإنسان.. فلو نطقنا اللام مرققاً، أو مفخماً، فإنه لم تتغير ماهيته، حتى وإن تغيّر معنى الكلمة. كما في كلمة (احْمَيد[57]) في اللهجة العاميّة العراقية. بتفخيم الميم اسم لقبيلة عامة، وبترقيقها اسم لقبيلة خاصة أخرى.

---

[56] إستناداً للرسم القرآني

[57] الياء ممالة نحو الألف.

كما أن صفات الحرف تتغير بحسب ما يسبقه أو يلحقه من حروف، فمثلاً النون الساكنة، تظهر إن أتى بعدها الحروف الحلقية الستة: (الهاء.. الحاء.. الخاء.. العين.. الغين.. الهمزة). وتخفى، إن أتى بعدها: (السين أو الشين...)، وتدغم ادغاماً ناقصاً إن أتت بعدها الحروف المجموعة في كلمة (ينمو)، وتدغم ادغاماً كاملاً إن أتى بعدها اللام والراء.. وبهذه الحالة تكون قد فقدت ذاتها؛ لأنها تحولت إلى حرف آخر. لكن هذا في الدرج (الوصل) فقط.

وقد تم إضافة حروف إلى حروف الـ(29)، وهي الكاف المعقودة (گ).. والحرف الشبيه بالجيم: (چ)، و"الشين الجيمية" وهو حرف أعجمي (ژ).. وهناك حرف لا رسم له، وهو بين الثاء والصاد.. وأقرب إلى الثاء منه إلى الصاد..

إلا أن هذه الحروف، هي بديلة لأخرى.. وهي لا تغير المعنى، بل تقتصر على تغيير اللفظ الحرفي فقط.. ولا بد من التنبيه على أننا نحتاج إلى علامات حرفية وحركية. وقد اقترحتها في كتابي (المغني في الترقيم و التنقيط الإملائي).

مقتطفات من اللهجات العامية

كل اللهجات العامية في الدول العربية، قد تخلت عن دلالة الحركات في أواخر الكلمات تخلياً كلياً؛ لأنها صعبة، واعتمدت [اللهجات] على السياق وطبيعة الحال.

(محمد ضرب كامل) أو (ضرب محمد كامل).. فدائماً الضارب هو الأول، والمضروب هو الأخير.. وهذه الدلالة، دلالة سياقية بحتة؛ لأن دليل الإعراب في اللهجات العامية غير موجود.

كما أن اللهجة العامية تعتمد أيضاً على اللحن، وشدة الصوت والحركات، وتغير لون الوجه وتقاسيمه... إلخ. فإذا خاطبك شخصٌ ما بقوله: (إنتهْ خَيِّرْ)، فدلالتها تعتمد على نبرته الصوتية، فإذا كان يخاطبك بهدوء ورضا... فهو يعني أنك خيرٌ فعلاً، وإن كان غير راضٍ عليك، وغير مرتاح لك، فهو يقصد أنك ليس بخيرٍ!.

وكل شخص مخاطب بهذه الجملة وأشباهها من الجمل أو الجمل التي تخالفها، يأخذ بعين الاعتبار اللحن الصوتي والحركات وتغيير تعابير الوجه في الكلام.

طبعاً إذا كان هذا الكلام محكياً بطريقة صوتية، وليس مكتوباً، وعادة أن الكتابة تكون في اللغة الفصحى، أو الثقافية، لكن في وسائل التواصل بدأ الكثير يكتبون بالعامية؛ لعدم معرفتهم في الفصحى؛ لأن أغلب من يستخدم وسائل التواصل الاجتماعي، هم من الناس العاديين، الذين ثقافتهم محدودة.

حتى نعرف تركيب مفردات اللهجة العامية، واختلافها عن الفصحى، دعنا نترجم بعض الجمل الفصحى إلى العامية.

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر/28]

دعنا نترجم الآية إلى اللهجة الريفية الجنوبية العراقية: (اعْباد الله العلماء ايْخافون مْنَ اللهْ)..

﴿. . . أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ. . .﴾ [التوبة/3]

(اللهْ أُوْ رَسولَهْ مِتبرّين مْنِ المشركينْ).. وربما (الله مِتبري من المشركين، أُو رسولَه معاه).. وربما (اللهْ مِتبري مْن المشركين، أُو رسولَه هَمْ مِتبري مِنهُم).

اللهجة العامية، هي كالفصحى؛ لأنها لغة خطاب مباشر، وحينما نجعلها مكتوبة، تفقد بعضاً من الدلالات؛ لأن اللغات عامة لا تقتصر على الحروف، بل النبرات الصوتية والحركات الجسدية وطبيعة الحال... إلخ.

اللهجة العامية لا تعتمد على الحركات التي في أواخر الكلمات إطلاقاً، بل على السياق، وما يرافقه من نبرات صوتية وحركات... وحينما نحولها إلى مكتوبة، لابد أن نستخدم بعض التراكيب السياقية، دون غيرها، وإلا نقع في اللبس.. فمثلاً لو قال شخص: ((محمدْ راحْ للسوگ وْعلي))، وكتبها بهذه الطريقة، فلا نعلم، هل الكاتب يريد أن يشرك علي مع محمد في الذهاب للسوق، أم يقسم بالإمام علي (ع) بأن محمد ذهب للسوق حقيقة.

وهنا فلابد من استخدام السياق الثاني المستخدم في اللهجة العامية، وهو ((محمد وْعليْ راحَوْا لِلسُّوگ)).

لكن بعض الجمل تصبح تفقد الكثير من معانيها في اللهجة العامية، وكذلك في الفصحى، فلو أشار شخص لشيءٍ ما، وقال: ((أحب هذا))، أصبحت الجملة فاقدة لكثير من معناها؛ لأن كلمة (هذا) في الكتابة لا تشير إلى شيء موجود، بينما في الخطاب المباشر، المتكلم يشير إلى شخص أمامه، والمستمع يراه بعينه.

وبهذا يكون اسم الإشارة ناقص أو عديم الفائدة في كثير من الأمور، ولا يعد من المعارف؛ لأنه في الكتابة يشير إلى مجهول، كما مرّ عليك في المثال آنف الذكر.

كما أن كلمة (هذا) هي إشارة عامة، فيمكن أن يكون المُشار إليه رجل، أو كتاب، أو بستان، أو نهر... إلخ.

تستخدم اللهجة العامية ـ وهنا أعني العراقية ـ أساليب وأدوات تختلف تماماً عن الفصحى، فهي تطلق الجمع على المثنى، نحو ((محمد وْعلي أخوة)). وليس: ((محمدٌ وعليٌّ أخَوان)). أما في الأدوات، فهي تقول: ((محمد وْعلي مُو حاضْرِينْ))، وليس: ((محمدٌ وَعليّ ليس حاضرَيْنِ)).

كما أنها تستخدم الاسم الموصول (اللي) للجمع والمفرد والمذكر والمؤنث، نحو: ((ذولا اللي جالسين).. (هذا اللي جالس)).. ((هاذي اللي جالسة)).

وتستخدم كلمة (ذولا) أو (هذولا) لجمع الذكور، وهي بمعنى (هؤلاء) إلا أنها خاصة بالذكور. أما الإناث فتستخدم لهنّ (هذنّي) أو (هذلّي) أو (هذولي).

أما حينما يكون المُشار إليه بعيد، فيضاف حرف الكاف (ك) للذكور، هكذا: (ذولاك)، أو (هذولاك)، وحرف (چ) للإناث، فيكون (هذنيچ) أو (هذليچ) أو (هذوليچ).

وبما أن موضوعنا هنا، هو اللهجة العامية العراقية، أحب أن أذكر بعض الفوارق التي تمتاز بها اللهجات البدوية الجنوبية عن الريفية أو المدنية، فمثلاً ضمير المذكر والمؤنث المسبوق بباء جر في اللهجة البدوية يلفظ للمذكر (بُهْ)، وللمؤنث (بَهْ)، بينما في الريفية أو المدنية (الحضرية) يلفظ (بِيهْ) بإضافة ياء بين حرف الجر "الباء" والضمير "الهاء"..

أما ضمير الغائب المنفصل، فليفظ هكذا: (هُوّهْ) للمذكر، وللمؤنث: (هِيّهْ)، ولجمع المؤنث: (هِنّهْ).

أما في الاستفهام: (اشْبُهْ) للمذكر الغائب.. يعني ما الذي به.. (اشْبَهْ) للمؤنثة الغائبة.. يعني ما الذي بها.. ((اشْعَلامكْ) يعني ما الذي أصابك، وتقال عند عدم الرضا عن شخص ما، وتقال للمخاطب. (اشْبَكْ) يعني ما بك. (شنهو) تعني: ما هو.

أما أسماء الإشارة: (ذيتي) بمعنى: (هذي).. (ذاتا) بمعنى: (هذا).. (هذولا) تعني: (هؤلاء).. (هذولاك) تعني: (أولئك).. (ذيچ) تعني: (تلك).. بالإضافة إلى أسماء الإشارة الأخرى (هذا، هذي، ذاك). أما (غَادْ)، فتعني (هناك).

ويكتفي مستخدمو اللهجة البدوية الجنوبية العراقية بنون الوقاية، فمثلاً يقولون: ((غَشَّنْ سالم))، بدل (غشني سالم)... إلخ.

أما في صيغ بعض الأفعال، فيقولون: (كلا) بدل (أكل).. أما في ألف ولا التعريف (ال)، فحينما يدخلون (ال) على حرف قمري يلفظونها (آ) وليس (ال)، فيقولون: (آبيت) بدل (البيت)...

ولا يستخدمون الضمير (هُم) إلا في العقلاء، فمثلاً يقولون في المؤنث: (شرى البطيخات؛ حتى ياكِلِهِنْ).. وفي المذكر: (شرى الرغفان؛ حتى ياكلهن).. وهذا النظام يشمل اللهجات الريفية في كافة اللهجات في الجنوب.

بينما في بعض اللهجات "الحضرية" في بغداد ـ مثلاً ـ يقولون (اشترى البطيخات؛ حتى ياكلهم).. (اشترى اشياش الكباب؛ حتى ياكلهم).

أما مجازية اللهجة العامية العراقية، فكثير من جملها استعمالية، مستعملة في غير إنائها الأصلي، فمثلاً يقولون: (أحطك بْعيني). أي أعتز بك. (انطيني گفاك). أي ابتعد عني. وهذا المجاز الاستعمالي موجود في اللغة الفصحى، وقد ورد كثيراً في القرآن الكريم ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا . . . ﴾ [هود/ 37]. فظاهر اللفظ: أن الله يأمر نبيّه أن يصنع السفينة في عين الله!!. بينما المقصود أن النبي (ع) يصنع السفينة برعاية الله وحفظه.

﴿ . . . يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ . . . ﴾ [الفتح/10]. ظاهر الآية أن المسلمين، الذين مع النبي (ص)، يضعون أيديهم. والله يضع يده فوق أيديهم بطريقة مادية مرئية!!.. بينما المقصود أن سلطة الله فوق سلطتهم وقوتهم، وأنه يعلم بما يفعلون.

فاللهجة العامية لا تختلف عن الفصحى من حيث المجاز والحقيقة، لكنها تختلف اختلافاً جزئياً في التركيب، وبعض الأدوات، وعدم الاعتماد على حركة أواخر الكلمات. وكذا تختلف اختلافاً جزئياً في الصرف والاشتقاق.

كما أن اللهجة العامية بأنواعها، مطاوعة أكثر من اللغة العربية الفصحى، فهي أقل تقعيداً وتعقيداً منها.

وأحب أن أنبه إلى أمر، وهو أن اللهجة العراقية، هي كثير من مفرداتها سليلة اللغات القديمة، كالسومرية والأكدية والآشورية والآرامية، وتشوبها مفردات قليلة من الفارسية والتركية والإنگليزية.

وفي الحقيقة لا توجد لغة في العالم خالصة بنسبة (100%)، فكل اللغات فيها مزيج من لغات أخرى. طبعاً يختلف هذا المزيج من لغة إلى أخرى، حسب اختلاط أهلها مع أصحاب اللغات الأخرى. حتى القرآن الكريم فيه بعض من المفردات الغير عربية.

إن المفردات الأعجمية لا تعني أن اللغة أصبحت غير عربية؛ لأن العبرة في التركيب العربي. والمفردات القليلة الأعجمية تُصهر في المفردات الكثيرة العربية، وتخضع لتركيبها وصِيَغِهَا. فمثلاً اللغة العربية الفصحى، وحتى اللهجات العامية، تقول: (تفاح أحمر) أي أن الصفة تتأخر عن الموصوف، بينما في اللغة الإنكليزية تتقدم الصفة على الموصوف (ريد آبل)، وفي العدد، في العربية، فمثلاً: (واحد وعشرون)، وفي الإنكليزية: (توينتي وان)، أي "عشرون وواحد".

بل حتى اللحن والنبرة الصوتية ومخرج الحرف... يتغير في الكلمة المنقولة من لغة ما إلى اللغة العربية.

أما من جهة المعرفة، فإن اللغة أياً كانت، هي لسان ناطق، وليس انتماءً مكاني أو قبلي... فمن يتكلمها بشكل صحيح، فهو العربي، وإن كان من قبائل الأمازون!، ومن لا يتكلمها اطلاقاً، فهو الغير عربي!، وإن كان من أبناء عدنان وقحطان وهاشم.

إن أصحاب اللغة ليس لهم فضل على غيرهم؛ لأن الله أنزل القرآن على العرب من أجل أن يعلموا، وليس لأنهم الأفضل. ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف/ 2].

ولو كان إنزال الكتب من قبل الله فضلاً، لكان اليهود أفضل خلق الله؛ لأن الله أنزل عليهم من الكتب الكثير، وأرسل إليهم من الأنبياء الآلاف!. بل كثرة إرسال الأنبياء تدل على ضلالهم وانحرافهم؛ لأن المهتدين لا يحتاجون إلى نبي يهديهم.

إن اللغة أعم من الكلام، فهي ـ كما مر عليك ـ تشمل الإشارة الجسدية والنبرة الصوتية... بينما في الكتابة نحن نقتصر على الكلام فقط.. نعم أضاف الكتّاب مؤخراً بعض العلامات الدالة على تغيير النبرة، كعلامة التعجب والاستفهام والشارحتين... لكن هذه العلامات لا تعيض عن الكلام المباشر وما يحمله من دلالات. أما الكلام، فهو يقتصر على الكلام الملفوظ. أما الكتابة فهي تجسيد لذلك الكلام الملفوظ، أو ظل له، فهي لا تعكسه انعكاساً مرآتياً، بل تنوب عنه.. والكل يعلم أن النيابة غير الانعكاس.

الجملة

الجملة هي ما يتركب من كلمتين أو أكثر، وتكون مفيدة يصح السكوت عليها. هذا ما قاله النحاة عنها باختصار.

وقد ضربوا لذلك أمثالاً كثيرة. ونحن هنا لا نذكرها بالنص، بل بالمعنى. فلو قيل: "إلى محمد".. أو "رجل لن لم"... إلخ. فهذا لا يسمى كلاماً أو جملة؛ لأنه لا يفيد معنى.

وحتى الكلام التام الذي يفيد معنى، لكنه معلوم للجميع، قالوا عنه إنه لا يُسمى كلاماً، نحو (الإنسان دم ولحم).. (النار حارة).. (الثلج بارد)... إلخ.

طبعاً يكون ذا فائدة، إذا كان مقصود به معنى آخر مجازياً، مثل قولك لشخص: "النار حارة".. وتقصد أنك تحذره من شيء ما.

ويكون ذا معنى إن كان تعبيراً شعورياً، فتقول: "الشمس حارة". وتقصد أنك تتألم من حرارة الشمس.. وكذا إن كان شعراً أو غناءً.

ثم إن دلالة الجملة تنقسم إلى قسمين: **1**ـ قسم دلالته قطعية، تدل على معنى واحد. **2** ـ قسم دلالته ظنية احتمالية، تحتمل أكثر من معنى.

فالدلالة القطعية، نحو (الله واحد). والدلالة الاحتمالية، نحو: (عندي برميل نفطٍ). فيحتمل أن يكون عندك البرميل فارغاً، أو النفط.

أما دلالة المفردة، فغير دلالة الجملة، فمثلاً كلمة (جون) تعني الأبيض والأسود، و (القرء) تعني الحيض والطهر...

اللغة العربية وإبهام الدلالة!

الابهام ليس خاصاً باللغة العربية، بل يشمل كل اللغات. والسبب واضح؛ لأن اللغة صناعة اجتماعية، يصنعها المجتمع، كما أنها ليس معادلات رياضة؛ حتى تحرز الدقة المطلوبة في كل تعبيراتها ودلالاتها..

(جاء الجند صفاً صفاً). يحتمل أن تكون صفاً الثانية توكيد، فيكون الجيش أتى صفاً واحداً. أو يكون مجيئاً صفوفاً متفرقة، إن لم تكن الثانية توكيداً.

(كانوا كثيراً ما يأكلون). فيحتمل أن تكون "ما" موصولة أو مصدرية أو نافية. فهي تفيد الشيء ونقيضه.

(قلما رأيت مثلك).. فالمعنى يحتمل النفي والقلة، أي أنه لم يرَ مثلك أبداً، أو أنه رأى قليلاً مثلك.

(عقوبةٌ عليهم ثلاثين يوماً يسجنون)، فإذا علقنا ثلاثين بـ"عقوبة" كانت العقوبة ثلاثين يوماً، وإذا علقنا ثلاثين بـ"يسجنون"، كان السجن ثلاثين يوماً، والعقوبة غير محددة.

هذه نماذج قليلة اخترناها من بحر اللغة العربية الزخّار؛ من أجل إيضاح الفكرة، وتبيينها بشكل بسيط.

المعنى يصح الإعراب، والإعراب يصحح المعنى!

كما هو معروف أن الإعراب، وُضع لمعرفة المعنى بشكل سليم، لكن لا يمكنك أن تعرب جملة ما، إلا بعد أن تفهم معاني الكلمات.

يقول ابن هشام سألني أبو حيان: علامَ عطف (بحقلّد) من قول زهير:

تقيٌّ نقيٌّ لم يُكثرْ غنيمةً بنكهةِ ذي قربي ولا بحَقَلَّدِ

فقلت: حتى أعرف ما الحقلّد، فنظرنا، فإذا هو السيئ الخلقِ، فقلت هو معطوف على شيء متوهم، إذا المعنى: ليس بمكثرٍ غنيمةً.

فلو قلتَ: "أكلتُ اللقمَ"، لظن السامع أن اللقم شيء مأكول، فيعرب هذه الكلمة مفعولاً به منصوب. مع أن معنى لقم الشيء، هو أكله بسرعة.

في كثير من الأحيان يكون المعنى معروفاً ـ وإن اختلفت الألفاظ رفعاً ونصباً وجراً ـ في بعض الجمل في القرآن ـ مثلاً ـ وإن نطقناها بخلاف قواعد النحو.. وكما هو مقرر في علم الأصول: إن الكلام تابع للإرادة.. فلو قال لك شخص: "أنا عطشان" ـ وهو عطشان فعلاً ـ بطريقة هزلية، أو قالها وهو نائم، فإنك لا تأخذ بكلامه ولا تأتيه بالماء. وإذا قالها بطريقة جدية، فإنك تأتيه بالماء، وإن كان غير عطشان.

يقول الله تعال:

﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا . . . ﴾ [البقرة/124].

فسواء رفعنا (ربُّه) أو نصبناه، فلا أحد يجهل أن الله (عز وجل)، هو الذي ابتلى إبراهيم (ع).. ولا يعني هذا أن نقرأها بالخطأ!.

﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [فاطر/ 11].. فإذا قرأناها، بكسر الذال، فتعني (الكفار)، وإذا قرأناها بفتح الذال، فتعني (الأنبياء)!.

وهذا المعنى لغوي صرفي، وليس نحوياً، فلا يجب أن يخطئ به حتى الإنسان البسيط؛ لأن الصرف أساس اللغة.

كلمات زائدة!

ذكر النحاة أن بعض الكلمات تكون حشواً في الكلام لا محل لها من الإعراب، وإن كان لها معنى، كالتوكيد... وهذه التي تزاد في الكلام، سواء كانت أفعالاً أو حروفاً، هي: (كان.. أن.. إن.. ما.. لا.. الباء.. الفاء.. الواو.. الكاف...).

زيادة "كان"

كما في البيت الآتي، يقول النحاة أن "كان" هنا زائدة؛ لأنها لا تعمل ـ عاطلة عن العمل! ـ والعمل الذي يعنيه النحاة، ليس المعنى، بل العمل المزعوم!.

فكيف إذا مررت بدار قوم وجيرانٍ لنا كانوا كرامِ

فقد حكم عليها النحاة بعدم العمل× لأنها لم تنصب "كرام". وكرام هنا مجرورة؛ لأنها صفة لـ"جيران".. لكن كان ما أن تلبث أن تقوم، فتعمل، وهي غير موجودة!!!.. تعال معي واقرأ هاذين البيتين:

لا يأمن الدهر ذو بغي ولو ملكاً جنوده ضاق عنها السهل والجبل

وكذا:

أبا خراشة أما أنت ذا نفرٍ فإن قومي لم تأكلهم الضبعُ

يقول النحاة، الذي نصب (ملكاً) و (ذا) هو كان!!.. وحينما تقول لهم: كان غير موجودة!.. يردون عليك: نعم غير موجودة، لكنها تعمل!.. موجودة لا تعمل، وغير موجودة تعمل.. ما هذا الإعراب الغريب لله دركم؟!!.

زيادة "أن"

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا . . . ﴾ [يوسف/96].. ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا . . . ﴾ [العنكبوت/ 33].

زيادة "إن"

بني غدانة ما إن أنتم ذهب ولا صريف ولكن أنتم الخزف

زيادة "ما"

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ . . . ﴾ [آل عمران/159]..

زيادة "لا"

﴿لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [القيامة/1].

زيادة "مِن"

ما جاء من رجل ولا امرأة.

زيادة "الباء"

﴿لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ﴾ [الغاشية/ 22]..

وإن مدت الأيدي إلى الزاد لم أكن بأعجلهم إذ أجشع الناس أعجلُ

وكذلك:

هن الحرائر لا ربات أخمرة سود المحاجرِ لا يقرأنَ بالسُّوَرِ

وقوله تعالى:

﴿ . . . وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الحج/25]

زيادة "الفاء"

(فقط).. قالوا الفاء زائدة إعراباً، وقد جاءت لتزيين اللفظ!..

زيادة "الواو"

(واو ربّ) زائدة، كقول الشاعر: وليلٍ كموج البحر أرخى سدوله...

زيادة "الكاف"

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى/11].

في بعض كلام العرب تزداد الحروف أو الكلمات؛ من أجل التنغيم الصوتي أو الوزن الشعري، وربما تكون موروثة من لغة قديمة، قد تفرعت عنها العربية الفصحى، قد تكون عربية قديمة بائدة أو آرامية...

لفظنا لحروف الفصحى ليس كما كان قديما!

حينما نراجع أوصاف العلماء وذكرهم لصفات ومخارج الحروف ـ نكتشف أننا لا ننطقها كما كان ينطقها أهلها الأصليون، حتى في قراءَتنا للقرآن!.

التغيير لا يقتصر على مخرج الحرف قليلاً أو إبداله، بل يشمل صفات الحرف ولحنه، فمثلاً في عصرنا الحاضر، يستطيع العراقي تمييز صوت الخليجي ولو نطق بكلمات قليلة باللهجة العراقية، حتى وإن كان مجيداً لها؛ والسبب هو أنه له لحن مميز.. استمع إلى اللحن الصوتي الموريتاني، فإنك تجده مميزاً عن كل الدول العربية، بحيث تستطيع تمييزه بسرعة عن طريق المذياع!.

استمع إلى العربي، الذي تعلم اللغة الإنكليزية بإتقان، تجد اللحن الصوتي واضح في صوته.. ولا تفارقه هذه الظاهرة، إلا أن يتعلمها، وهو صغير، فتصبح لغته الرئيسية.

كان القدماءُ ينطقون القاف مجهورة، بينما نحن ننطقها شديدة مهموسة، حتى في قراءة القرآن الكريم!.

والضاد التي مخرجها من حافة اللسان ممّا يلي الأضراس. وهي معدومة في عصرنا، وقد أصبحت ظاءً في الغالب، وحتى القراء لا ينطقونها، كما كانت تنطق عند القدماء!. وكانت عند القدماء مشوبة بطاء.

وكان حرف الطاء عند القدماء، ينطق قريب من الضاد، أو مشوب بحرف بضاد.

والجيم كانت أقرب إلى الرخاوة، وقد أصبحت تنطق في بعض اللهجات رخوة جداً ومعطشة، كما في اللهجة السورية. أي يشوبها حرف شين.. وعند العراقيين شديدة ومجهورة.

وكانت الهمزة لا تعدو سوى كسرة أو ضمة أو فتحة، حتى قيل إن قريش لا تهمز، لكن قراءنا في رواية حفص، يظهرون الهمزة محققة بشكل يقطع البلعوم!!. قيل إن تحقيق الهمزة لبعض التميميين والحجازيين.

نعم القرآن لم ينزل بلغة معينة، بل صيغ الكلامي القرآني، والاختلافات النحوية، والقراءات المتعددة ـ تبين أن القرآن الكريم، هو اتحاد لهجات، وليس نتاج لهجة واحدة قرشية أو تيمية...

كانت بعض القبائل في لهجاتها، ك تميم وقيس وأسد، تبدل الهمزة عيناً، فمثلاً (أَن) يقلبونها (عن).. وتسمى هذه الطريقة (**عنعنة**).

وكانت قضاعة وبنو حنظلة وفُقَيم، تبدل الياء جيماً، فمثلاً (راعي) تصير (راعج). وتسمى هذه الطريقة (**عجعجة**).

وكانت ربيعة ومضر تضعان بعد كاف الخطاب شيناً: رأيتك، تصبح رأيتكشْ.. عليك.. عليكش... وتمسى هذه الطريقة (**الكشكشة**). لكن بعضهم يلتزم بها في الوقف فقط.

وبعضهم يضع الشين مكان الكاف: (عليك)، تصبح (عليش).. وربما أبدلوا الكاف بالسين، كما هي حال الشين. وتسمى هذه الطريقة (**الكسكسة**).

وعند هذيل يبدلون الحاء عيناً، وهو خاص في (حتى)، يجعلونها (عتى).

أما (**الشنشنة**)، فهي إبدال الكاف شيناً مطلقاً، ونسبت لأهل اليمن: (لبيش اللهم لبيش)..

(**الطمطمانية**)، وهي إبدال لام التعريف ميماً: (امساحل) يعني (الساحل). وتنسب إلى حمير وهذيل. وبعض أهل مصر في عصرنا الحاضر، يقولون: (امبارح) يعني (البارح).

ولا زال بعض الخليجيين، يقول: (معليش)، بدل (معليك). وفي العراق البعض يبدل النون ميماً، فيقول (حمظل) بدل (حنظل). واللام نوناً، فيقول: (شنونك)، بدل (شلونك). وفي تكريت يفخمون بعض اللامات، فيقولون (خلّه[58].. تعال)... وفي مصر يبدلون الضمير الهائي واواً، فيقولون: (عارفينو) بدل (عارفينه). وفي تكريت يبدلون الهاء ألفاً، فيقولون (نْعجا) بدل (نَعجة).

(**الاستنطاء**)، وهو إبدال العين نوناً، إذا أتت بعدها طاء: أعطى، تصبح (أنطى)[59].. وتنسب لسعد بن بكر وهذيل وقيس والأزد، وأهل اليمن.. وفي العراق ـ حالياً ـ يقولون: إنطاني ـ بكسر الهمزة ـ ولا يقولون (أعطاني). لكنهم يقولون (عطية)، ولا يقولون (نطية).

وكانت قبيلة طيء، تقول (حوْث) بدل (حيْث)، وبعضهم يعرب (حيث) والبعض الآخر يبنيها على الضم.

وكانت بعض قبائل أسد وأسد تلفظ الكاف كافاً معقودة، فمثلاً (قال) يلفظونها (گال)، كما هي حال اللهجات في اليمن[60] والعراق والخليج ومصر... وهي عربية بحتة، وليست أعجمية، كما يزعم الانتقائيون!.. للأسف بعض اللغويين والنحويين عبثوا في اللهجات العربية من أجل أن يطمروها؛ لأن السلطة أرادت ذلك، فسيدوا ما أرادته السلطة، وطمروا وشوهوا الذي لا تريد.. إن اللهجات بكافة أنواعها يجب أن تُحترم.

ويتطرق ابن خلدون في مقدمته لهذا الأمر، لكنه كعادته في النصب والعداء لأهل البيت (ع) وذريتهم، يكذب ويدجّل!، فيقول:

((... وقد ادعى ذلك فقهاء أهل البيت وزعموا أن من قرأ في أم القرآن ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ بغير القاف التي لهذا الجيل، فقد لحن وأفسد صلاته، ولم أدرِ من أين جاء هذا، فإن أهل الأمصار أيضاً لم يستحدثوها، وإنما تناقلوها من لحن سلفهم، وكان أكثرهم من مضر لما نزلوا الأمصار من لدن الفتح. وأهل الجيل أيضاً لم يستحدثوها، إلا أنهم أبعد

---

[58] خله، يعني اتركه.

[59] لكن البعض علق على هذه الظاهرة: من أن أنطى غير أعطى، فأنطى أصله نطا ينطو.. نطوت الحبل: مددته.. وأعطى تناول.

[60] اليمنيون جميعاً يلفظونها كافاً معقودة حتى في قراءة القرآن.

من مخالطة الأعاجم من أهل الأمصار. فهذا يرجح، فيما يوجد من اللغة لديهم، أنه من لغة سلفهم...)).

(**الوتم**)، وهو إبدال السين تاءً، وهي لهجة يمنية (ناس) تصبح (نات). وكان بعض العرب يقلب الهمزة بعد الألف واللام التعريف لاماً: (الأحمر) تصبح (اللحمر). وبعضهم يستعمل (ال) اسم موصول.. وهذه الظاهرة موجود في العراق والخليج... وبعض البدو في العراق يبدلون الهمزة عيناً في بعض الكلمات، فيقولون: (سعل .. قرعان) بدل (سأل .. قرآن). وبعضهم يبدل الجيم ياء، فيقول: (الميهول) بدل (المجهول). والكاف (چ) في بعض الكلمات، فيقولون: (چثير) بدل (كثير).. ويبدلون القاف كافاً في بعض الكلمات، فيقولون: (وكت) بدل (وقت)، وبعضهم يبدل القاف كافاً، وكافاً معقودة (گ)، فيقولون: (مچتول) و (مكتول) بد (مقتول). والقاف كافاً معقودة، نحو: (گُمر) بدل (قمر). وفي البحرين يبدلون الشين بكاف "أعجمية"، فيقولون: (نچوف) بدل (نشوف). وفي العراق هناك من يبدل الميم بالباء، فيقول: (بكان) بدل (مكان). وبعض ـ قليل ـ أهل ميسان والسماوة يقلبون الجيم إلى الحرف الأعجمي (ژ)، فيقولون: (دژا ژ) بدل (دجاج). وهذا الحرف مزيج بين الجيم والشين. وهو حرف مجهور.

كلمة (سلطان.. ساطع.. بَسْط) في اللهجات العامية العراقية أو الخليجية ـ تلفظ بالصاد، كما في بعض القبائل الحجازية القديمة. وهي كما تلاحظ سينات متلوة بطاء مباشرة أو تفصلها الألف اللينة. وسبب القلب، هو الثقل.. أما إذا لم تتلو السين طاء، فلا تقلب صاداً. نحو (سلمان.. سابع.. بَسْل).

إبدال التاء طاءً، نحو: (أفلتني)، تصبح (أفَلَطني)، وهي لهجة تميمية. وفي عصرنا الحاضر، في بعض اللهجات البغدادية، يقولون: (صوط) ـ أو يمزجون التاء بالطاء ـ بدل (صوت).

وبعض العرب (قضاعة) تفتح باء الجر، وتسكن هاء الضمير الغائب، فتقول: (مررت بَهْ)، بدل (بِهِ).. في العراق في اللهجات البدوية الجنوبية، يقولونك (بُهْ) للمذكر، و (بَهْ) للمؤنث. ويقولون: (بَكْ) بدل (بِكَ) الفصحى. وفي جميع العراق تقريباً، يقولون: (بِچ). فيبدلون كاف الخطاب الأنثوي المكسور حرفَ جيم "أعجمية"(چ) ساكنة.

وفي العراق والخليج... يضيفون التاء المربوطة في كلمة (عشرة) إلى صدر كلمة (أيام)، فيلفظونها (عشرْتِيّام) بدل (عشرةُ أيام).

ومن خصائص اللهجات العراقية والخليجية، كل ماض ينتهي بألف في المضارع، تقلبه ياء، ولا تقلبه واواً أبداً، نحو: (غزا.. نما.. غدا.. وشا... رمى.. هدى.. عصى.. بنى.. مشى...). فكلها تلفظ: (يغزي.. ينمي.. يغدي.. يوشي... يرمي.. يهدي.. يبني.. يمشي).

التلتلة (**تلتلة بهراء**)، وهي إبدال في الحركات وليس الحروف. (يَعلمون.. تِعلم)، بدل (تَعلمون.. تِعلم). وهي تشبه اللهجات العراقية الجنوبية.

((وحكي إن طائفة من بني تميم كانوا يكسرون أول الفعل، فمرت فتاة منهم جميلة الصورة على جماعة فناداها شخص منهم، وأراد أن يوقعها فيما ينسب إليهم من كسر الفعل، فقال لأي شيء يا بني تميم ما تكتنون؟. فقالت: ولم لا نكتني[!!.] وكسرت الفعل، فضحك عليها، وقال: أفعل إن شاء الله [!!]. فخجلت من قوله وتغير وجهها وأردت أن توقعه، كما أوقعها. فقالت له: هل تحسن شيئاً من العروض؟. قال: نعم. قالت: قطّع لي:

حَولوا عنّا كنيستكم يَا بني حمّالة الحطبِ[61]

فقطعه، فوقف على عن، ثم ابتدأ بالنون والألف مع بقية الحروف، فضحكت عليه وأضحكت أصحابه. فقال ويحك لم تبرحي حتى أخذت ثأرك))[62].

(**الوَكّم**)، وهو كسر كاف الخطاب المتصلة بها الميم الجمع: (عليكُم) تصبح (عليكِم). وتنسب لبكر بن وائل. أو لربيعة، أو كلاهما.. في ليبيا يفتحون الكاف: (عليكَمْ). وفي بعض لهجات العراق: (اعْليكَمْ).

وبعض العرب، مثل تميم وقيس وأسد، تفتح همزة (إمّا) التفصيلية، فتلفظها (أَمّا).

يا ليت أُمنا شالت نعامتها أما إلى جنةٍ أما إلى النارِ

والعامية العراقية ـ التي أعرفها ـ تسير على هذا المنوال، أي فتح "إما". فيقولون: ((أما أنا وأما إنته)). وبعضهم يقول: ((يا أنا يا إنته)). وغالباً ما يكون هذ الكلام للتهديد والوعيد!!.

(**الوهم**): (منهُم.. عليهِم..)، لكن كلب وربيعة، تنطقانها بالكسر مطلقاً: (منهِم.. عليهِم)...

وبعد كل هذه الاختلاف الهائلة، التي لم نذكر منها، إلا النزر، كما أن اللغويين، لم ينقلوا، إلا القليل منها ـ تتضح قوانين النحاة النحوية!!.

إن ما قاله اللغويون والنحاة أشبه باللغة المفترضة؛ لأنهم أخذوا بعضاً من الكلام والصيغ، وتركوا البعض الآخر، ثم وضعوا قانوناً قياسياً لأكثر الكلام.

---

[61] بعد التقطيع، تكون: (حولوا عن ناكني...!!)

[62] المستطرف في كل فن مستظرف للأبشيهي

قد مرت عليك صيغ واختلافات كلام العرب، ولابد لنا أن نذكر لك نموذجاً من الإعراب.. فمثلاً قريش تقول: (ما هذا بشرٌ)، بينما في الحجاز، يقولون: (ما هذا بشراً). وقد وردت في القرآن الكريم: ﴿ . . . وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف /31].

وبعض القبائل، مثل خثعم في اليمن، يلزمون الاسم الموصول المثنى (اللذانِ) حالة واحدة رفعاً أو جراً ونصباً.. وهذا يجري في الأسماء الستة.. يقول الشاعر:

إن أباها وأبا أباها قد بلغا في المجد غايتاها

فقد نصب (أباها) على الرغم من أنه مضاف، ومن المفترض أن يلفظ (وأبا أبيها)..

وبعض العرب يقول الذون في الرفع والذين في النصب والجر وهم بنو هذيل ومنه قوله

نحن اللذون صبحوا الصباحا يوم النخيل غارة ملحاحا[63]

وكانوا يقلبون الياء ألفاً، إن سبقتها فتحة، فيقولون: (إلاك.. علاه) أي (إليك.. عليه).

((الضمير البارز بنقسم إلى متصل ومنفصل فالمتصل هو الذي لا يبتدأ به كالكاف من أكرمك ونحوه ولا يقع بعد إلا في الاختيار، فلا يقال ما أكرمت إلاك وقد جاء شذوذاً في الشعر، كقوله:

أعوذ برب العرش من فئة بغت علي فما لي عوض إلاه ناصر

وما علينا إذا ما كنت جارتنا أن لا يجاورنا إلاك ديار))[64]

ذو الطائية: كقولهم: جاءني ذو قام، ورأيت ذو قام، ومررت بذو قام...

فإما كرام موسرون لقيتهم فحسبي من ذو عندهم ما كفانيا

والحقيقة لم تكن هناك لغة موحدة، بل هناك لهجات متعددة، تختلف في الإعراب والبناء، والصرف والتركيب، والحذف والاثبات، والتقديم والتأخير، والتفخيم والترقيق، والإمالة[65]، والإبدال، والعوض[66]، ومخارج الحروف، وبعضها يلفظ حروفاً لا تلفظها الأخرى، ومعاني

---

[63] شرح ابن الناظم/ ص 34.

[64] شرح ابن عقيل.. وقد ورد البيت في شرح ابن الناظم، هكذا:

وما نبالي إذا ما كنتِ جارتنا أن لا يجاورنا إلّاكِ ديّارُ

[65] مثل إمالة الألف نحو الياء، أو نحو الواو.. فمثلاً (مجراها)، تصبح (مجريها).. (زكاة) (زكوة).

[66] نقصد به أن يعيض حرف جر عن آخر. (في جذوع النخل) (على جذوع النخل). كما قال النحاة.

بعض المفردات واختلافها واشتراكاتها... والنبي (ص) قد توفي واللهجات على حالها. وخير دليل، هو أن القرآن له عدة قراءات: سبعية أو عشرية... إلخ.

غرائب اللغة!

هناك أمور في اللغة العربية غريبة عجيبة، ولا أدري لماذا استخدمها العرب؟.. أعتقد أن هذه الطريقة مأخوذة من لغة قديمة بائدة.

فمن هذه الغرائب: عدم تنوين الاسم المؤنث، مثل (فاطمة، أو جاءتْ زينب...)، فلا تقول: (جاءتْ فاطمةٌ أو زينبٌ)، بل تقول: (جاءت فاطمةُ، أو جاءت زينبُ. وحتى المؤنث اللفظي يشمله الحكم، مثل: (جاء حمزةُ). ـ طبعاً لا نريد أن نذكر الاختلافات بين البصريين والكوفيين ـ والاسم الذي على وزن الفعل أيضاً لا ينوّن، مثل: (جاء أحمدُ.. رأيتُ أحمدَ..). وكذا الأعجمي، مثل: (رأيت إبراهيمَ).

والاسم الذي لا ينون، يجر بالفتحة نيابة عن الكسرة، سواء كان على وزن الفعل أو أعجمياً، مثل: (مررتُ بأحمدَ.. مررت بإبراهيمَ...). وكذا الاسم المنتهي بألف ونون زائدتين، مثل (سلمان.. عجلان...).. أما جمع المؤنث السالم، فينصب بالكسرة نيابة عن الكسرة، مثل: (رأيتُ مسلماتٍ.. رأيتُ مؤمناتٍ...).

فأنت كلما توهمت أن توصلت إلى قاعدة عامة في اللغة العربية، حتى تتفاجأ بأنها مخرومة!!..

ومن غرائب اللغة ـ أيضاً ـ التقديم والتأخير المبهم، الذي يصيب القارئ بالدوار!.. تعال معي إلى هذه الأبيات الشعرية:

إذا قيل أي الناس شر قبيلة أشارتْ كليبٍ بالأكف الأصابعُ

هل هذا كلام بليغ؟.. لقد اهتم الشاعر باللفظ والوزن الشعري، وضرب القاعدة المعنوية بمقتل!.. لقد قلب الكلام رأساً على عقب!.. وإذا أردنا تفكيك هذا الكلام، يكون المعنى: "أشارت الأصابعُ بالأكف على كليب.

إن هذا الكلام جميل من حيث اللفظ، لكنه هزيل جداً من حيث المعنى، وهو أشبه بطلاسم!!.

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنوهن أبناء الرجال الأباعدِ

وهنا تقديم وتأخير، يربك الكلام، إلا أنه أخف وطأة من البيت الذي سبقه؛ لأنه أدسم معنى منه بكثير. والأصل: بنو أبنائنا هم بنونا. وبنو بناتنا هم أبناء الرجال الغرباء. وحينما نعيد العناصر المبعثرة لمكانها الأصلي، يكون البيت، هكذا:

بنو أبنائنا بنونا، وبنو بناتنا أبناء الرجال الأباعدِ

فلو رمزنا لعناصر الكلام بأرقام تسلسلية حسب الأصل، وحسب التغيير، لتبين لك كمية التلاعب!.

الأصل: (1 2 3 4 5 6 7 8).. التغيير: (2 3 1 5 4 6 7 8).. فقط ثلاثة عناصر من البيت احتفظت بترتيبها الأصلي، وهي الأخيرة منه.

هذا الكلام لو ألقي على عرب اليوم، لطلبوا منك شرحه وتوضيحه لعدة مرات، ولقالوا لك: ما هذا الكلام الغريب، هل هو لغز؟!.

صراحة هذا الكلام يعده عرب اليوم من الناس العاديين لغزاً، حاله حال أحد ألغازهم العاميّة، التي تقول: (فُوتْ اوْ خلْني ابْحالِيْ أَخُو مَرْةِ الميّت خَالِي[67])!!.

وبعد عَصْرِ المخّ؛ لإخراج دهن المعادلات التفكيرية!، يتبين أن الميّت هو والد المتكلم، صاحب الكلام المشفّر والمطلسم!!.

مع المعلقات السبع

لقد ذاع صيت المعلقات السبع أو العشر، حتى أصبح يضرب بها المثل، وخصوصاً قصيدة أمرئ القيس، التي مطلعها: (قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ...). وبالطبع معظم كلمات هذه القصائد تدور حول الناقة والحصان.

---

[67] فوت: (امشِ).. خلني: (اتركني).. مرة: (امْرأة).

وقد راجعت (المعلقات العشر) شرح أحمد الشنقيطي، وراجعت شرح الكلمات الغامضة من خلال لسان العرب.. وقد اكتشفت أن هذه المعلقات جميلة جداً من حيث التركيب اللفظي والموسيقي. أما من حيث المعنى فبعض أبياتها غاية في الروعة، وبعضها ضعيف جداً!، وخصوصاً التشبيه فيها!.. ولا نريد أن نطيل عليك الكلام. فهيا بنا.

يقول امرؤ القيس واصفاً حصانه:

ضليع إذا استدبرته سد فرجُه بضافٍ فُوَيقَ الأرض ليس بأعزلِ

تخيل أن حصاناً يجر ذيله خلفه، ماذا تكون صورته؟!.. هل تكون جميلة ومرغوبة أم يكون أضحوكة للصادر والوارد؟!.

إن هذه الصفات لا توجد حتى في الثعالب!.. إنها صفات رديئة لا يجب أن لا تصدر من شاعر مثل امرئ القيس.

ويقول واصفاً حبيبته:

وكشحٍ لطيف كالجديل مخصَّرٍ وساقٍ كأُنبوب السَّقِيّ المُذَلَّلِ

يصف خصرها بأنه، كحبل رفيع مفتول، ويصف ساقها بأنه، كقصبة بردي من حيث الصفاء!!.. لو شبه ساقيها بالمرآة أو الزجاج، لكان تشبيهه جميلاً؛ لأن ما شبّه به ساق المرأة، هو أقل جمالاً من ساقها!.

هذا التشبيه ضعيف، وليس فيه، صورة تبهر السامع وتطربه..

ويقول واصفاً الجبل:

كأنّ ثَبِيراً في عرانين وَبْله كبيرُ أُناسٍ في بِجادٍ مُزَمَّلِ

يشبه الجبل الذي وقع عليه المطر والسيل، برجل كبير شأن [أو عمر] متدثر بلحاف!!.. ماذا تقولون بهذه الصورة؟!.. نعم تصلح هذه الصورة، إذا كانت من باب الهزل.. كما أن الجبل لا يشبّه بالرجل، بل الرجل يشبه بالجبل.

ويقول واصفاً أصابع صاحبته:

وتَعْطُو بِرَخْصٍ غَيْرِ شَثْنٍ كأَنه أَساريعُ ظَبْيٍ أَو مساوِيكُ إِسْحِلِ

يشبه أصابع صاحبته بدود! يخرج في وقت الربيع، في جبل ظبي بتهامة، يُسمى (أساريع)!!.. ماذا تقولون في هذا التشبيه الجميل؟!... لو شبه رجل ما ـ في عصرنا الحاضر ـ أصابع صاحبته بدود، لغضبت منه!.

وبعد أن بدأ بالقاصفة تلاها بالرادفة!.. يقول واصفاً الوادي:

ووادٍ كجوفِ العَيْرِ قفرٍ قطعتُهُ به الذئبُ يعوي كالخليع المُعيّلِ

هذا التشبيه غريب وعجيب، وهزيل وغير منطقي!، فهو يصف الوادي السحيق العميق، ببطن "الحِمار"!، ثم يشبه عواء الذئب بكلام الرجل صاحب العيال المطرود!!.. لو شبه الرجل صاحب الصوت النكر، بعواء الذئب، لكان الكلام بليغاً.

يقول طرفة بن عبد البكري واصفاً امرأة:

لها فخذان أكمل النحضُ فيهما كأنهما بابا منيفٍ مُمرَّدِ

يشبه فخذي المرأة، وهما ممتلئان باللحم ـ ببابي قصر عالٍ أملس!!.. ما هذا التشبيه بحق السماء؟!!.

ويقول عُمْر بن كلثوم:

تُريكَ إذا دخلتْ على خلاءٍ و قد أمنتْ عيونَ الكاشحينا

ذِراعَيْ عيطلٍ أدْماءَ بَكْرٍ هجانِ اللونِ لم تقرأْ جَنِينا

.....

و مَتنَيْ لدْنةٍ سمقت وطالت روادفها تنوءُ بما ولينَا

و مأكَمَةٍ يضيقُ البابُ عنها وكشحاً قد جُننتُ به جنونا

يصف عَمرُ بن كلثوم صاحبته، بأن ذراعيها، كذراعي ناقة بيضاء بكر، ويصف متنيها بمتني قامة طويلة، وأنها لا تستطيع تنهض، إلا بتثاقل من ضخامة عجيزتها!!.

ثم يصف رأس وركها بأنه يضيق الباب عنه لامتلائه باللحم!، وخصر يصيب الرائي بالجنون!!.

إنه تشبيه فج ورديء.. تصوّر أن رسّاماً رسمها على ضوء هذا الوصف، وعرضها على الناس، هل يعجبون بها؟!.

يقول الأعشى واصفاً امرأة:

غـراءُ فـرعاءُ مصقولٌ عـوارضُـها تمشي الهُوينا كما يمشي الوَجِي الوَجِلُ

بيضاء وطويلة الشعر ونقيّة الأسنان، كل هذه أوصاف جميلة، لكن تمشي، كحصان متوحل في طين وهو حافي الحافر، فهذا تشبيه كارتوني!!. في العراق يقولون: ((تمشي على مهل، مثل التحتها بيض))!.. طبعاً البيت غني باللحن والموسيقى الصوتية.. إنه جميل لفظاً، لكن معناه التشبيهي هزيل!.

وهناك أبيات غاية في الروعة، نذكر منها بيتين:

يقول الأعشى:

كناطحٍ صخرةً يوماً ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنَهُ الوَعِلُ

فهو يشبه من يقحم نفسه في أمور هو ليس أهلاً لها، بذلك الذي يضرب رأسه بصخرة، فلا يستطيع تحطيمها، بل يتحطم رأسه!.

ويقول طرفة بن عبد البكري:

لعَمْرُك إنّ الموتَ ما أخطأَ الفتى لكَالطول المُرخى وثِنْيَاهُ باليَدِ

غاية في الروعة، فهو يشبه حياة الإنسان بحبل يمسكه الموت لكنه مرخيه، ومتى أراده سحب حبله!.

كثير من الشعر الدارج، هو أفضل بعشرات المرات من تلك الأبيات الضعيفة آنفة الذكر، سواء في العراق أو غيره من الدول.

تعال معي، واقرأ هاتين البيتين من قصيدة قصيرة للمرحوم رحيم المالكي، وهو يصف العراق..

جابوا بس قميصك بيك تهموا ذيب، وْ بِري منّك الذيب، ابْهاي مَا يِلّامْ

كفكفْ دَمع عينكْ سيّدي يَعْراگْ، انته الذيب وحدك، والبقية اغنامْ[68]

ويقول جواد الحمراني في بيت من قصيدة طويلة:

المتنسيه ابْفشگ لا اظَّن تِجيب اطْيور والحِبلتْ باسْد ما اتْجيب نَعامه[69]

أما في الفصحى، فهناك قصائد شعرية أفضل بكثير مما في المعلقات.. يقول حسون الوائلي:

اِبنَي و الأشواق ملء إهابي قسماً بكل إلية و كتابِ

لو تلمسون أضالعي بأكفكم لعجبتم لما احترقنَ ثيابي

وقول عمر أبو ريشة في ديوانه:

سنقطع الدرب على المنحنى و للسنا الإيماءةُ الهاديهْ

وبعدنا يبقى الشذا والندا و النسمة الرائحة الغاديهْ

و البلبل الشادي على أيكة والنرجس الحاني على ساقيهْ

ونشوة العشاق في همس ما قلناه في أيامنا الماضيهْ

رفيقتي أهوت على ساعدَي شاحبة..... و انفجرتْ باكيهْ

أين هذا من ذلك الذي يصف ذراعيها بذراعَي الناقة، وعجيزتها الكبيرة التي تعجزها عن النهوض، وفخذها الذي لا يدخل الباب؛ لكبره!.. إنها صورة كاريتيرية بكل ما تحمل الكلمة من معنى!.

---

[68] بري: بريء.. هاي: هذه.. يعراگ: يا عراق.

[69] الفشگ: الرصاص.. متنسية: تتوحّم.. تجيب: تلد.

أو ذلك، الذي يصف فخذيها ببابي قصر منيف ممرد!.. شتان بين ما الوصفين، وشتان ما بين الصورتين!.

ويقول عمر أبو ريشة:

لن تعثري عبر الدجى.. إنه أسنى سراج كان في بيتي

حملته في غفلتي بعدما أسرى بك التيه وأسريتِ

و ما تلفّتِّ به صوب ما أضحكتِ من عمري وأبكيتِ

ليتك لما سرتِ في نوره ذكرتِ فيه قطرةَ الزّيتِ

لله درك يا عمر، ما هذا الكلام الذي كله روائع وبدائع؟!.

ويقول صفي الدين الحلي:

يا ضعيف الجفون أضعفتَ قلباً كان قبل الهوى قوياً مليّا

لا تحاربْ بناظريك فؤادي فضعيفان يغلبان قويا

يقصد بالضعيفين: عينَي المعشوق، وبالقوي: قلبه. وفي البيت صورة رائعة، فقد وصف عينيها بالمحاربين، وقلبه بالمُحارب. بالطبع، اثنان يغلبان واحداً!!.

ويقول حيدر الحلي:

ألفتك نافرة الظباء الهيف

و استوطنت ربعك المألوف

فانعم بناعمةِ الشبيبة غضّة

بيضاء ضامية الوشاح رشوف

أبداً يروق العينَ في وجناتها

وردٌ ولكن ليس بالمقطوف[70]

ليس كل ماض جميل، بل قد يكون قبيحاً جداً.. يجب علينا أن ننظر للأمور بعين موضوعية، بعيداً عن العواطف الجياشة والتعصب الأعمى؛ حتى نراها كما هي دون تضخيم أو تقزيم.. كم من شاعر مغمور، مدح طاغية بيده زمام الأمور؛ فأصبح من الذين يشار إليهم بالبنان، وروجت له وسائل الإعلام النفاقية، رفعته إلى ذرى المجد وفوق الدوحة العلياء، وهو لا يملك من الشعر غير الهراء!.. وكم من منافق متملق أصبح من الفقهاء والمحدثين؛ لأنه حرف الدين لأجل الطاغية، فأصبح شيخ الإسلام وعلم الأعلام، وهو لا يساوي ذرة تراب، أو ريشة غراب!.

[70] أي: يروق العين وردٌ في وجناتها.

الخاتمة

وإلى هنا نكون قد انتهينا من كتابنا (مع النحو العربي والنحاة)، وذلك بتاريخ (2020م).. وليعلم القارئ أن ما كتبناه من أطروحة نقدية مختصرة تمثل رأينا، وهي قابلة للنقد و"الطعن"؛ لأنها مجرد رأي شخصي، كما أنني لستُ معصوماً، فأنا بشر أُصيب وأُخطِئ. وسبحانَ مَن يصيب ولا يخطئ، فهو واحد لا شريك له.. كما أرجو أن لا يُفهم من هذه الأطروحة أنني أطعن باللغة العربية أو أفضل غيرها عليها!.. كلا وألف كلا.. وإنما أعتقد أن اللغة العربية نتاج بشري فيها الجميل وغير الجميل، كما أن علم النحو نتاج بشري، فيه الجميل المقبول، وفيه القبيح المرذول!. كما أني لا أبرئ الكثير من النحاة، الذين في كنف السلطة الغاشمة، فهم لا يختلفون عن فقهائها، الذين سخروا الدين للسلطة.. وأخيراً أقول إن هذه الأطروحة كلفتي الكثير من الوقت، فقد أعتكف لمدة (17) ساعة في كثير من الأيام والليالي، حتى أكمل هذا البحث.. وها أنا أكتب هذه السطور. والساعة تقارب الواحدة والنصف بعد منتصف الليل صيفاً.. وصلى اللهُ على محمدٍ وآله خير البريّة..

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

شمخي جابر فاضل ـ جمهوريّة العراق/ ذي قار.

الفهرس

المقدمة 4
يُعرف الكلام بثلاثة طرق 6
نماذج نحوية من اختراع النحاة!! 10
المحتوى والإناء 21
الحقيقة والمجاز 21
الكلام وظرفية الزمان والمكان 23
النحاةُ وفلسفة الكلام 25
الترتيب حسب العَمَل 26
لغة "أكلوني البراغيث" 27
رفع المنصوب بعد أداة النصب! 28
المعنى هو الأصل 30
تقسيم الأفعال 41
الدلالة الوقتية للأفعال 42
الدلالات الثبوتية للجمل الاسمية 44
التقسيم الثلاثي 44
اندكاك المعنى في اللفظ 61
مناقشة 62
مخارج ملتوية! 63
لا سيما 73
الترتيب حسب المعنى لا العمل 76
أمثلة تطبيقية متفرقة 77
فذلكات لا تصحح نطقاً!! 81
النحاة والحروف 83

الحروف في اللهجات العربية 87
مقتطفات من اللهجات العامية 91
الجملة 96
اللغة العربية وإبهام الدلالة! 96
المعنى يصح الإعراب، والإعراب يصحح المعنى! 97
كلمات زائدة! 98
لفظنا لحروف الفصحى ليس كما كان قديما! 100
غرائب اللغة! 106
مع المعلقات السبع 107
الخاتمة 114
الفهرس 115